المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والإعلام - دائرة الشؤون الثقافية والنشر
الجمهورية العراقية
المجلد الرابع عشر - العدد الثاني ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

٢

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد علي محمد

محاضر جلسات اكاديمية العلوم الالمانية في برلين
قسم اللغات والادب والفن

السنة ١٩٦٠ ، الرقم ٢

كترينا مومسن

گوته والمعلقات

تعريب الدكتور

علي يحيى منصور

استاذ مساعد

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

مراجعة الدكتور

نوري حمودي القيسي

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

ذروني اسكب العبرات ، محاطا بالليل

كانت المعلقات ، وهي آثار مشهورة من الشعر العربي المبكر ، مالوفة كل الالفة عند گوته (١) . ونعرف ذلك من ادلة مختلفة يعود تاريخ اقدمها الى سنة ١٧٨٢ واحدثها الى سنة ١٨٢٣ ، وبدا تحدد له فترة زمنية تقدر باربعة عقود (٢) . لكن ماغفل عنه الباحثون حتى الان هو ان المعلقات اثرت في شعر گوته نفسه بطرق متباينة عديدة . ويعالج البحث التالي تلك الايحاءات ، والمؤثرات . والمعلقات عدد من قصائد ماقبل الاسلام ، وهي كما يقول بروكلمان في تاريخ الادب العربي ، « اقدم ديوان شعري ورثناه (٣) . وتعني كلمة (معلقات) : « تلك القصائد التي علقت في موقع شريف لنفاستها ومن المعنى الحرفي للكلمة نشأت الاسطورة القائلة بان هذه القصائد كانت معلقة على باب الكعبة باعتبارها نماذج كاملة » .

ونجد هذا التفسير الاسطوري الوارد اعلاه في الملاحظات والتعليقات الملحقة بالديوان الغربي ـ الشرقي لگوته وهو ماكان يتماشى مع مستوى المعرفة آنذاك . وماعلينا اليوم الا تصحيح ذلك .

اما المسائل الاخرى كقضية اختيار القصائد التي تحمل خصائص المعلقات ، فنتركها جانبا، ويحتوي الديوان على سبع قصائد وهي في العادة نفس القصائد التي وجدها فيه گوته .

وترد اكثر آراء گوته اسهابا حول المعلقات في التعليقات والابحاث الملحقة بالديوان الغربي ـ الشرقي . فهو يقول في الفصل المعنون « العرب » وقد كتبه بين ٢٤ كانون الاول ١٨١٨ و٧ كانون الثاني ١٨١٩ ـ مايلي :

« نجد عند العرب كنوز رائعة في المعلقات(٤) وهي قصائد مديح نالت الجوائز في المباريات الشعرية ، ونظمت في العصر السابق لمجيء الرسول [صلى الله عليه ، وسلم] ، وكتبت بحروف من ذهب ، وعلقت على باب الكعبة في مكة (٥) ، وتعطي فكرة عن شعب بدوي ، عرف الرعي ، محارب ، تمزقه من الداخل المنازعات بين القبائل التي يصارع بعضها بعضا . وتعبر عن التعلق الراسخ بابناء القبيلة وعن شعور بالشرف والشجاعة والرغبة الجامحة في الثار التي يوحي بها الحزن في العشق ، والكرم ، والاخلاص بغير حدود .

وهذه القصائد تزودنا بفكرة وافية عن علو

WWW.ATTAWEIL.COM

الثقافة التي تميزت بها قبيلة قريش ، التي منها الرسول [صلى الله عليه وسلم] ، ولكنه اضفى عليها غلالة جادة من الدين . وعرف كيف ينتزع منها كل مطمع في تقدم (مادي) خالص(٦) .

والملاحظ ان گوته يورد سلسلة من دوافع الشعر (يسبقها بعبارة الدوافع » الواردة هي :) التي نجدها في المعلقات . وتعداد الدوافع غير مكتمل تماما ، الا انها تعتبر امثلة يعتد بخصوصيتها . والقصائد السبع في هذا الديوان هي اولا من القصائد التي نضمت قبل الاسلام وان لها ، على حد تعبير گوته ، « نهكه محببة » (٧) ، وهي ثانيا تعالج مجاميع معينة من دوافع الشعر بأساليب تقليدية متعددة . وليكن أحد هذه الدوافع التي يستخدمها كل شعراء المعلقات موضع اهتمامنا . ويسميه گوته في المقطع الذي استشهدنا به اعلاه : « الحزن في العشق » . او بعبارة ادق : الحزن بعد فراق الحبيبة ، كما تفرضه طبيعة حياة التجوال والترحال عند البدو حتى يصبح معاناة غالبة . واوسع نطاق لاستخدام هذا الدافع في المعلقات موجود في شعر امرىء القيس . لقد انشغل گوته بعمق بقصيدة هذا الشاعر مرتين وقام بترجمتها جزئيا على الاقل وهو امر معروف لدى الباحثين جميعا ، اذ اثرت القصيدة ايضا من خلال ايحاءاتها المهمة على المقطوعة الشعرية في الديوان الغربي الشرقي ولم يفطن احد الى ذلك لحد الان . اما ترجمة قصيدة امرىء القيس فهي تعود الى بدء اهتمام مثبت بالوثائق للشاعر گوته بالمعلقات بصورة عامة . ففي ١٤ تشرين الثاني ١٧٨٣ كتب الشاعر الى كارل فون كنيبل يقول :

« لقد قام جونز المعروف بدراساته المستفيضة حول الشعر العربي بنشر المعلقات او القصائد السبع للشعراء العرب السبعة الكبار والتي كانت معلقة في الكعبة (٨) ، مع ترجمة انكليزية (٩) . وهي على العموم غريبة جدا ، وفي بعضها مواضع جذابة الى حد بالغ . لقد آلينا على انفسنا (١٠) بأن نترجمها سوية ، سيكون بمقدورك انت ايضا ان تراها عاجلا » (١١) . ووصلنا جزء من الترجمة المذكورة من اللغة الانكليزية يمثل افتتاحية معلقة امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل(١٢)
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمال
كأني غداة البين يوم تحملوا
لدى سمرات الحي ، ناقف حنظل
وقوفا بها صحبي علي مطيهم
يقولون : لا تهلك اسى وتجمل
وان شفائي عبرة مهراقة
فهل عند رسم دارس من معول
كدابك من ام الحويرث قبلها
وجارتها ام الرباب بماسل
اذا قامتا تضوع المسك منهما
نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل
ففاضت دموع العين مني صبابة
على النحر حتى بل دمعي محملي
الارب يوم لك منهن صالح
ولاسيما يوم بدارة جلجل
ويوم عقرت للعذارى مطيتي
فيا عجبا من كورها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها
وشحم كهداب الدمقس المفتل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة
فقالت : لك الويلات ، انك مرجلي
تقول ، وقد مال الغبيط بنا ، معا
عقرت بعيري ، يآمرا القيس ، فانزل
فقلت لها سيري ، وارخي زمامه
ولاتبعدني من جناك المعلل
فمثلك حبلي قد طرقت ومرضع
فالهيتها عن ذي تمائم محول
اذا مابكى من خلفها انصرفت له
بشق وتحتى شقها لم يحول
ويوما على ظهر الكثيب تعذرت
علي وآلت حلفة لم تحلل
افاطم مهلا بعض هذا التدلل
وان كنت قد ازمعت صرمي فاجملي
وان تك قد ساءتك مني خليقة
فسلي ثيابي من ثيابك تنسل(١٣)

وهنا ينتهي المقطع المحفوظ لترجمة قصيدة امرىء القيس . ولعل گوته ترجم في سنة ١٧٨٣ مزيدا منها . ففي الجزء المؤرخ ١٨١٥ من كراريس الايام والاعوام (كتبت في تموز ١٨٢٣) يستعيد گوته ذكرى ترجمة المعلقات التي قام بها سنة ١٧٨٣ بالعبارات التالية :

« لقد تذكرت (١٤) المعلقات التي ترجمت عددا

[! ... علامة التعجب لكاتبة البحث] منها بعد نشرها مباشرة (١٥) ؛ فالحديث هنا اذا يدور حول ترجمة » عدد « من القصائد المعلقة ؛ ولانعرف مدى الثقة بذاكرة الشاعر بعد ٤٠ عاما . وعلى اي حال فالمقطع المحفوظ الذي استشهدنا به هو الوحيد الذي وصلنا . ونستشف من عدة دلائل على ان گوته قد » تذكر « المعلقات ايام كان منكبا على نظم قطع الديوان . ففي الفترة الواقعة بين » شباط و ١ نيسان من سنة ١٨١٥ استعار ثلاث طبعات (١٦) للمعلقات من مكتبة فايمار ، بينها الطبعة المذكورة اعلاه لوليم جونز(١٧) . وتتطرق يومياته الى ذكر مطالعاته للمعلقات في ٢٣ و ٢٧ شباط ١٨١٥ ؛ كما انه قرا المعلقات في مساء يوم ٢٨ شباط امام الدوقة (١٨) لويزه . ولعل المقطع التالي كان معدا لتلك المناسبة :

معلقات

سبع قصائد لسبعة شعراء ممتازين قصائد نالت الصدارة علقت واحدة واحدة بعد الاخرى على ابواب الكعبة سبق ان اشرنا الى نفي هذه التسمية .

وهي من حقبة زمنية قديمة من فترة الجاهلية فترة الجهل بالدين والشعراء بالاسم هم : زهير ، طرفة امرؤ القيس عمرو بن كلثوم الحارث بن حلزة عنترة لبيد وعاش الاخير حتى عصر الرسول [صلى الله عليه وسلم] واعتنق الدين الذي دعا اليه ويختلف ، المؤرخون في آخر الاسماء وهناك تعليقات وتفاسير حول هذه القصائد (١٩) .

وكان كتاب ايربيلو » المكتبة الشرقية « هو المصدر الذي استمد منه گوته ملاحظاته الملحقة بديوانه . لقد قام شاعرنا عدة مرات باستعارة ايربيلو من مكتبة ڤايمار . واشارة الاستعارة الاولى مؤرخة : ٢٢ كانون الاول ١٨١٤ حتى ٢٢ مايس ١٨١٥ . ويعود تاريخ الملاحظات (المدونة على ظهر بطاقة وصل مسرح مؤرخة في ١٦ آب ١٨١٤) الى تلك الفترة ايضا . وهي مرتبطة من ناحية الفحوى ايضا ببدايات الدراسات الشرقية التي قام بها گوته ، وليست لها علاقة بفترة عمله في اعداد (التعليقات والابحاث) للديوان .

وسنتطرق الى ذكر ادلة اضافية مهمة اخرى من السنوات ١٨١٥ و ١٨١٦ في مجال آخر . فالادلة التي سقناها تكفي لوحدها للبرهنة على ان گوته قد قام بدراسات مفصلة للمعلقات في سنة ١٨١٥ ذاتها واخذ عنها ، وخاصة من الترجمة القصيرة لامرىء القيس التي كان قد اعدها بنفسه ، ايحاءات لنظم مقطوعة خاصة به ، الا وهي تلك المقطوعة الشعرية التي يعتقد انها نظمت في ايلول ١٨١٥ مباشرة ، بمدمغادرة ماريانه فون فيلمير لهايدلبرك : «دعوني اسكب العبرات ، محاطا بالليل» وبالرغم من ان المقطوعة تعتبر ، من حيث فحواها وخطها ، من مقطوعات الديوان وانها قد نظمت في وقت مبكر نسبيا ، فان گوته لم ينشرها بنفسه ابدا ، ولعل السبب يكمن في انها تعالج موضوع » الحزن في العشق « بعاطفة عارمة ومباشرة :

ذروني اذرف العبرات ، محاطا بالليل
في الفلوات اللامتناهية .
الابل تستريح ، وكذلك اصحابها ،
والارمني يسهر ويحب في صمت ؛
وانا بجواره ، احسب الاميال
التي تفصلني عن زليخا ؛ واكرر
المتعرجات الثقيلة التي تطيل في الطريق
ذروني اسكب العبرات ! فليس في هذا عار
فالرجال البكاؤون اخيار
الم يبك اخيل على حبيبته بريسس
واحشورش بكي على الناجين من جيشه ،
وعلى خليله الذي قتله بيده
بكي الاسكندر
ذروني اسكب العبرات : فإن الدموع تحي التراب
وهاهو ذا يخضوضر(٢٠)

يتخيل الشاعر نفسه في قافلة تسير في الصحراء : هذا هو الموقف الاساس للقصيدة . وقد اشار المعلقون منذ زمن طويل الى الشبه بين هذه القصيدة والمقطع الرابع والخامس من مقطوعة» هجرة « لگوته (وسنتحدث عنها فيما بعد) . اما الفكرة الاساسية فيها فهي : البكاء بعد فراق الحبيبة التي ترد مرارا في كتاب زليخا (٢١) . اما في مقطوعة « ذروني اسكب العبرات ، محاطا بالليل » فقد خطت الفكرة خطوة جذرية الى الامام : فالشاعر هنا يبرر البكاء امام كافة الاعتراضات . وهو لايقدر بل لايريد ان يحبس تلك الدموع : وهنا يكمن المضمون الاساسي للمقطوعة .

اننا نلتقي هنا مجددا بالموقف الاساس من جهة وبالفكرة الاساسية باسلوب فريد جدا في المعلقات من جهة اخرى . اما فيما يتعلق بالموقف الاساس فالمعلقات شعر بدو ينشدونه في الصحراء وفي حلقات سمر القوافل بين الرعاة و «حداة الابل » : لكن البكاء على فراق حبيبة غائبة يلعب

هنا أيضا دورا رائعا جداً بكل معنى الكلمة ، دوراً من الطراز الاول : حيث ان كل معلقة من المعلقات السبع تبدأ بتنويع هذه الفكرة ! ويشير انتون تيودور هارتمان (٢٢) ، وهو مترجم المعلقات ، في مقدمة الطبعة الالمانية الى هذه الظاهرة مؤكدا اياها بكل قوة . فهو يقول في اطار وصف عام للمعلقات (ص ٨) :

ان « مسار هذه القصائد هو باختصار كما يلي : مشهد اطلال المنازل التي كانت آهلة فيما مضى واصبحت الان خاوية ، يطلق اعمق الاهات من قلب الشاعر الذي غابت حبيبته . وهو يصف محاسنها ويمدد فضائلها ، ولكن الشاعر يحاول ان يحبس تلك الاهات » .

ثم يصف هارتمان المضمون النموذجي لكل القصائد المعلقة في مراحله اللاحقة ـ التغني بالجراة والشجاعة واعمال الحرب ومفاخر الاباء والدعوة الى التمتع بملذات الحياة ، ومدح حسن الضيافة والكرم مع حشو الحكم والاقوال المأثورة . ثم يعود من جديد الى النقطة الاولى ـ البكاء على الحبيبة الغائبة ـ حيث يرى ضرورة لتوضيح امره ويجده في :

« حياة العرب المتسمة بالبداوة فحين تحط الابل السائرة رحالها قرب بعضها ، تتوطد اواصر الالفة المذبة بين العربي الشاب مع غادة جميلة في خيمة مجاورة : وحين ترحل الحبيبة مع قومها (وهذا ماكان يحدث فعلا حين تاتي الابل على كل العشب والنبت المتوفر لرعيها) ، لايبقى للعربي العاشق سوى الشوق والحنين دون أي امل في وصال . لذا يرتبط مشهد المنازل التي رحلت عنها الحبيبة والرماد المتناثر فيها واحجار مواقدها المسودة مع آثار حفرها . . . الخ بذكرى السويعات المفعمة بالسعادة الغامرة التي قضاها بجانبها ، وهي تملأ قلبه بالحسرات وتدفعه مرة الى بث ابلغ الشكوى لفراق الحبيبة ومرة الى وصف محاسنها الانثوية بسيل من دافق الكلام(٢٣) » .

ان اوسع تصدير لموضوع البكاء واجمله ، او كما يقول گوته : « موضوع الحزن في العشق (٢٤) » ، يتمثل في قصيدة امرىء القيس ، اي القصيدة التي كان گوته قد ترجمها في سنة ١٧٨٣ ، وهي تتصدر مجموعة القصائد في ترجمة هارتمان . ونلاحظ ابتداءا من الكلمات الاولى التطابق المذهل بينها وبين مقطوعة گوته ، حيث ترد جملة « دعوني اسكب العبرات » ثلاث مرات : في البيت الاول والبيت الثامن والبيت الرابع عشر . وفي كل مرة يضعها في اول البيت للتأكيد عليها الى اقصى حد . الا ان امرا القيس يقول في مطلع قصيدته ـ وهنا في البيت الاول ايضا : ـ

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وتستدل من التطابق المنسجم لصيغة البكاء وورودها في مطلع القصيدة على ان گوته قد تلقى هنا فعلا بعض المؤثرات (٢٥) ونلاحظ ان تحديد المكان عند امرىء القيس مرتبط بصيغة البكاء مباشرة : » بسقط اللوى « عنده ، و » في الصحراء اللامتناهية « عند گوته . ثم ان امرا القيس يحدد الموقف ايضا بكلمة » قفا « ، كما يفعل گوته حين يقول : » الابل تستريح ؛ وكذلك اصحابها « .

اما فيما يتعلق بتحديد گوته لصفة المكان ذي المفزى المعر محاطا » بالليل « (بيت ١) فتجدر الاشارة الى مقطع آخر في قصيدة امرىء القيس ـ يرد عند وصف الليل في مواضع كثيرة من معلقات ـ :

بيت ٣٨ :
تضيء الظلام بالعشاء كأنها
منارة ممسى راهب متبتل

بيت ٤٠ :
تسلت عمايات الرجال عن الصبا
وليس فؤادي عن هواك بمنسل

بيت ٤٢ :
وليل كموج البحر ارخى سدوله
علي بأنواع الهموم ليبتلي

ويستمر امرؤ القيس بتوسيع موضوع البكاء :

بيت ٣ :
وقوفا بها صحبي علي مطيهم
يقولون لاتهلك اسى وتجمل

بيت ٤ :
وان شفائي عبرة مهراقة
فهل عند رسم دارس من معول(٢٦)

وقياسا على ذلك يدافع گوته الشاعر عن بكائه ، عن دموعه » « (بيت ١٤) ، حيث يبدو أن تكرار » ذروني اسكب العبرات « لثلاث مرات يجد صداه في قصيدة امرىء القيس وهو تقليد له . وان النقد الموجه الى الدموع هنا ، وفي قصيدة مشابهة لها تماما سنأتي على ذكرها قريبا، قد اوحى

الى گوته بمقطوعته . وقد التقى گوته أيضا بالموضوع نفسه في ملخص فحوى القصيدة الذي تصدر ترجمة هارتمان للمعلقات . وهذه هي الجمل الاولى (ص ٣٩ وما يليها) : يتخيل » الشاعر نفسه في رحلة مع اصحابه كعادة بني قومه ، وحين يقترب من المكان الذي كانت حبيبته تنزل فيه قبل زمن قريب ولكن قبيلتها رحلت عنه بعيدا [قارن بيت ٥ ـ ٧ عند گوته] ، فيرجو الشاعر اصحابه ان يتريثوا قليلا ليتنسى له الاسترسال في خواطره عند آثار خيمتها المهجورة ويريح قلبه المنقبض بالدموع فينصحه الاصحاب بأن يتمسك بالصبر ويبدى قدرا اكبر من صلابة « الروح . ويثبت » گوته الشاعر في ابياته بأن الدموع بسبب فراق الحبيبة ليست بـ « عار » .

ونلتقي بموضوع النوح ايضا بشكل مشابه في ترجمة هارتمان لقصيدة طرفة ـ وهي القصيدة الثانية في هذه الطبعة ـ والموضوع مرتبط بموضوع انتقاد البكاء . ، وشأنه في ذلك شأن القصائد الاخرى ، في مطلع القصيدة . ويوجز هارتمان مضمون القصيدة بما يلي : » طرفه ... يبدأ كالعادة بنوح شديد على حبيبته الغائبة (٢٧) . فاذا تأملنا الابيات ٢ ـ ٤ من قصيدة طرفه لفتت انظارنا نقاط تطابق اضافية مع مقطوعة گوته (هارتمان ص ٧٠ ومايليها) :

بيت ٢
وقوفا بها صحبي علي مطيهم
يقولون لاتهلك اسى وتجلد

بيت ٣
كأن حدوج المالكية غدوة
خلايا سفين بالنواصف من دد

بيت ٤
عدولية او من سفين ابن يامن
يجور بها الملاح طورا ويهتدي

ويبرز هنا ايضا الطلب نفسه : » تجلد وكن رجلا « وهو مطابق بصورة مباشرة للمثال الذي يسوقه گوته بأن الرجال « البكائين طيبون » . الا ان هناك تطابقا حرفيا ايضا حين يشير طرفه مثل گوته الى ان الحبيبة قد آذنته ببينها في ارض ذات شعاب وعرة وهو الشاعر الباكي الذي يفكر فيها .. (گوته : انني ... اسير في الدروب الوعرة القاسية التي تبعدني عن الحبيبة) . ويمكننا من خلال تعابير كهذه البرهنة على الاصول التي اثرت على شعر گوته بكل وضوح . ولعل گوته لايستخدم هنا خاصة الكلمة المألوفة ، لانها ترد أيضا في مقطوعة اخرى وبالمعنى نفسه تماما : اي عند وصف الشاعر كالمعتاد لدموعه التي يذرفها بسبب الحبيبة التي بانت ، وذلك في مطلع القصيدة . وهكذا تبدأ قصيدة الحارث بن حلزه في ترجمة هارتمان (ص ٢٠١ ومايليها) :

بيت ١
آذنتنا ببينها اسماء
رب ثاو يمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببرقة شما
ء فادنى ديارها الخلصاء
فالمحياة فالصفاح فاعنا
ق فتاق فعاذب فالوفاء ـ
فرياض القطا فاودية الشـ
ـبب فالشعبتان فالابلاء
لا ارى من عهدت فيها فابكى الـ
يوم دلها وما يرد البكاء

بيت ٦
وبعينك اوقدت عند النا
ر اخيرا تسوى بها العلياء

بيت ٩
غير اني قد استعين على الها
م اذا خف بالثوى النجاء

فحين يتتبع الشاعر گوته ، وهو يذرف الدموع ، شعاب « الطريق التي تفصله عن حبيبته البعيدة بأفكاره فان اساس هذه الفكرة صور رائعة مصدرها ابيات من قصائد عربية (٢٨) . وكان الشعراء العرب البدو يتتبعون الطرق ذات الشعاب الكثيرة في المواقف المشابهه لابأفكارهم بل بسيرهم الحقيقي خلف آثار احبتهم . وقد اطلع گوته على ذلك أيضا في تعليقات هارتمان (ص ٧٤) :

حين « كان الشعراء يجدون منازل احبتهم المهجورة كانوا يتتبعون طريق سيرهن الذي اخذهن على ظهور الجمال . وكانوا ان هاموا على وجوههم وقبلوا آثار الحبيبة على رمال الصحراء لتخفيف الامهم » .

فاذا اخذنا كل هذا بنظر الاعتبار لبرز لنا تأثر قول گوته : « انني اكرر السير في الدروب الوعرة » القاسية بصورة اكثر حيوية . فشاعر الديوان الغربي ـ الشرقي يقلد الشاعر البدوي بافكاره ولو لم يكن يقلده بالفعل وكلمة « حادي الابل » والتي لا ترد في اي مكان آخر من الديوان

الا في مقطوعة « ذروني أسكب العبرات » هي ايضا من مفردات ترجمة هارتمان للمعلقات (٢٩) حتى ان هناك احتمالا بأن هارتمان هو الملهم لفكرة ذكر امثلة لابطال بكائين من الادب الاغريقي (اخيل ؛ اكزرلس، الاسكندر)؛ ويستخدم هارتمان في مقدمته مرارا عديدة مصطلحات بلاغية اغريقية لتوضيح معالم حياة العرب وسلوكهم لقرائه ، وذلك عن طريق الاستعانة بأمثلة من الادب الاغريقي القديم المألوف لديهم . وهكذا نجد عند هارتمان الاشارة الى اخيل مرتين (٣٠) ، كما ان غوته نفسه يبدا قائمة امثلة بأخيل (بيت ١٠) .

ويتحدد شرح هذه الجمل بكلمة « يخضوضر » وهي من صياغة كوته ؛ وتعني في راي المعلقين : « عبير النبات الغض الرطب » (٣١) وتستخدم الكلمة دائما كـ « علامة للحياة المتجددة (٣٢) » وترمز الى «كل قوى النمو والتجدد»(٣٣) وفي مقطوعتنا تلميح الى ان « الدموع » تستحث الشاعر بعد فراق الحبيبة وتؤثر ايجابيا حتى على نتاجه الشعري (٣٤) . وينطبق ذلك على ميزة فريدة لشاعريه كوته لم ينتبه اليها الباحثون الا في الاونة الاخيرة : فالحبيبة النائية بالذات او البعيدة المنال هي دائما الاكثر الهاما له (٣٥) .

وهكذا نظمت اهم اجزاء كتاب زليخا والديوان على الموم ، بعد افتراق الشاعر عن ماريانه في خريف ١٨١٥ ، وكذلك فقد سبق الحصاد والوفير من المقطوعات الشعرية بين رحلات الراين في سنتي ١٨١٤ و ١٨١٥ ؛ وفراقه عن ماريانه .

و « الحزن في العشق » ، كما نرى ، يشكل عند كوته على الاغلب المدخل الى النشاط الشعري الجديد . ونلاحظ ظاهرة مشابهة لهذه تماما عند شعراء المعلقات : فالقاعدة المتبعة هي ان تبدا كل قصيدة بتصوير الحزن في العشق وعبر ذلك فقط يمهد الطريق امام التعبير الشعري وانطلاقته ؛ وهكذا كان العرف في النهج التقليدي العربي (٣٦) .

ونحن واثقون بأن كوته قد ادرك بنظرة واحدة تلك الخاصية الشيقة والمميزة لشعراء المعلقات لانها خاصية فريدة كانت تشابه خصوصيته الشعرية بشكل عجيب. وواضح تأثير مقدمة امريء القيس في تصوير « الحزن في العشق » في احدى مقطوعات ديوان كوته .

ولم تكن لدينا حتى الان ادلة موثوقة لتحديد تاريخ مقطوعة « ذروني اسكب العبرات » الا اننا لو تأملنا مضمونها لوجدنا ان تاريخ نظمها يقع حتما في الايام التي تلت لقاء كوته بماريانه في هايدلبرك . ولذلك يحدد كل من هـ . ا . نورث(٣٧) . وهانس فايتز(٣٨) تاريخ نظمها تخمينا في تلك الفترة .

وكما كانت تلك الايام الفضيلة (من ٢٣ – ٢٦ ايلول ١٨١٥) التي التقى خلالها كوته وماريانه في هايدلبرك من اسعد ايامهما فان لحظة مغادرتها لتلك المدينة صارت من اشد الفترات بأسا في حياة شاعرنا (٣٩) . وكانت حصيلة ذلك الفراق مجموعة من القطع الشعرية التي ضمها « كتاب زليخا » وتدور حول محور الفراق . وتنتمي مقطوعة « ذروني اسكب العبرات » من حيث المضمون الى تلك المجموعة باعتبارها قطعة تعبر باسلوب مباشر عن الهزة التي يتركها الم الفراق في كيان الشاعر (حتى انه تردد كثيرا قبل ان ينشرها) . ويدل الاستحضار الحي لطريق الحبيبة المسافرة على انصله الزمنية الوثيقة جدا بين القطعة والحدث المعاش : وقد وقعت ماريانا ايضا ، وهي تغادر هايدلبرك (في ٢٦ ايلول) ، تجربة الوداع شعرا في قطعتها المؤثرة .

« أيتها الريح الغربية كم احسدك .
على اجنحتك الرطيبة :
لانك تستطيعين ان تحملي اليه .
نبأ ماأعانيه من الام الفراق (... (٤٠) » .

فلو وضعنا في اعتبارنا بان في مقطوعة « ذروني اسكب العبرات » مواقف ودوافع ومفردات كثيرة ماخوذة من المعلقات فان ذلك سيوفر لنا تأكيدا اضافيا لتحديد تاريخ نظم القطعة . لقد رأينا بأن كوته انكب على قراءة المعلقات في ربيع سنة ١٨١٥ وتعمق في دراستها . وكان قد استعار ترجمة هارتمان آنذاك (٤١) . ولابد أن المعلقات كانت في أيلول ماتزال حاضرة في ذهنه : ففي اللحظة التي اكتوى فيها بنيران اشفى وداع ، تذكر بان المعلقات هي التي اهتمت بالذات بموضوع الم الفراق اهتماما بالغا ، لعله يفوق اهتمام اي من الاداب العالمية الاخرى ، وتفننت في تنويعه واعطته مكان الصدارة. وكان كوته اثناء مكوثه في هايدلبرك يزور المستشرق باولص يوميا . وفي تلك الايام التي تلت وداع ماريانه المؤلم انشغل كوته وباولص بالادب العربي واللغة العربية وكتابتها، هذا ماعرفناه من يوميات شاعرنا ومن البديهي ان المعلقات ، وهي الديوان الرئيسي للشعر العربي ، كانت من مواضيع

أحاديثهما . كما كان بمقدور كوته طبعا ان يطلع على ترجمه هارتمان للمعلقات عند باولص او استعارتها . لذا يمكننا القول بأن تلك الترجمة كانت لدى الشاعر حين نظم مقطوعة « ذرونسي اسكب العبرات » وتستدل من مقطوعة « خاتمة » المنظومة في ٧ تشرين الثاني سنه ١٨١٥ (كتاب زليخا) ، ان كوته كان آنذاك يتلقى مؤثرات من الاداب الشرقية عامة في موضوع الفراق . وكانت ابيات الشاعر حافظ الشيرازي عن « ليلة الفراق » هي التي ساعدت في تكوين جوهر مقطوعة كوته . وترينا هذه الحاله المناظره مدى اعتماده اثناء نظم الديوان على مواضيع انموذجيه معينه استعارها من الشرق .

هجـــرة

وبالاضافة الى اليوميات وملاحظات استعارة الكتب من المكتبة التي تعود الى اوائل سنة ١٨١٥ (٤٢) ، فان هناك دليلا اخر على انشغال كوته بالمعلقات آنذاك يتمثل في نص رسالة كتبها الشاعر في ذلك الوقت يشير فيها الى ان المعلقات اثرت ايضا تاثيرا ملهما في نظم مقطوعات ديوانه . ففي ١٦ مايس ١٨١٥ كتب كوته رسالته موجهة الى كوتا تحتوي على قائمه بالمقطوعات التي نظمها « في ساعات وحدته وبروح الشرق واسلوبه » ، ويعني ذلك بالضبط في الفترة التي بدات بحزيران ١٨١٤ . ويتحدث الشاعر اول الامر عن الكيفية التي « الهمته » ترجمة يوسف فون هامر لديوان حافظ ببعض المقطوعات بحيث ادى ذلك الى « ترابط وثيق بينها » . لكنه يضيف الى ذلك قائلا بان عوامل اخرى اثرت عليه الى جانب ذ » وبالاضافة الى حافظ المذكور ؛ فقد راعيت شعر الشرق وآدابه بدءا بالمعلقات والقرآن حتى جامي ، لا بل انني لم اهمل حتى ذلك التاريخ : وهو الثبت المعروف بـ « فهرس فيزبادن » ؛ المؤرخ في ٣٠ مايس ١٨١٥ . لقد استطاعت البحوث حتى الان تحديد كل المصادر الشرقية المذكورة في رسالة كوته الموجهة الى كوتا والتي استلهم منها الشاعر افكارا للمقطوعات المئة الواردة في « فهرس فيزبادن » باستثناء مصدر واحد هو المعلقات . وعثر الباحثون على عناصر شعرية في مقطوعات الديوان المبكرة اقتبست من القرآن وحافظ وجامي (ومصادر اخرى) والشعراء الاتراك . لكن غياب المعلقات يثير التساؤل لاسيما ان اشارات كوته الى المصادر الاخرى كانت دقيقة .

الا ان هناك اضافة اخرى ، وهي ان فهرس فيزبادن لمقطوعات الديوان المؤرخ في ٣٠ مايس ١٨١٥ ، يورد تحت رقم ٢ مقطوعة غزلية نظمت لاحقا عنوانها « اجلال » . وقد وصلتنا هذه المقطوعه (٤٤) . ويظن انها نظمت بعد رسالة كوته الموجهه الى كوتا المؤرخة في ١٦ مايس ١٨١٥ بوقت قصير ؛ لانها تعبر عن فحوى مافيل في الرسالة ولكن بشكل مفصل (٤٥) . ويرد تحت عنوان « الجليل من الاثار الشعريه » عدد من المصادر الشرقيه استلهم كوته منها الكثير : فنجد في المرتبه الخامسه مايلي (وقد برز كوته الكلمات بوضوح تام في المخطوطه) : « ... في بلاد قاصية ، معلقات الصحراء الموغلة في القدم . » (٤٦) وترد تسع مجموعات متباينة من دواوين الشعر الشرقية وتعد انها مصادر لمقطوعات ديوان كوته ، اي المقطوعات المذكورة في فهرس فيزبادن ، ولكن باستثناء واحد هو المعلقات .

وهكذا يستدل من الوثيقتين المذكورتين على ان في مقطوعات الديوان المذكورة في فهرس فيزبادن ؛ واستنادا الى اشارة كوته نفسه ؛ اسبابا تدعونا الى البحث عن مؤثرات مباشرة للمعلقات في تلك المقطوعات . ويمكننا فعلا البرهنة على ارتباط ابرز مقطوعتين من بينها بالمعلقات ارتباطا مباشرا : المقطوعة الاولى هي « هجرة » وهي اول مقطوعه في كتاب المعنى ومقطوعة « اني لك هذا ؟ وكيف امكن ان يأتيك ؟ » (وهي تحمل عنوان « توافل » في فهرس فيزبادن) ، وهي اول مقطوعة في كتاب الحزن .

ولنتامل قبل كل شيء المقطوعة الفاتحة للديوان كله :

هجرة

الشمال والغرب والجنوب تتحطم وتتناثر ؛
والعروش تثل والممالك تتزعزع وتضطرب
فلتهاجر اذن الى الشرق الطاهر الصافي
كي تستروح جو الهداة والمرسلين ،
هنالك ، حيث الحب والشرب والغناء
سيعيدك ينبوع الخضر شابا من جديد
الى هنالك حيث الطهر والحق والصفاء ،
اود ان اقود الاجناس البشرية ،
حتى انفذ بها الى اعماق الماضي السحيق
حين كانت تتلقى من لدن الرب
وحي السماء بلغة الارض ،
دون تحطيم الراس بالتفكير ،
هنالك ، حيث كان الاباء يقدسون ،

وعن الخضوع لاي غريب يمتنعون ؛
اجل ، هنالك اود التملي بحدود الشباب :
فيكون ايماني واسعا عريضا وفكري ضيقا محدودا
واود ان تعلم كيف تقدس الكلمات ،
لا لشيء الا لانها كلمات فاهت بها الشفاه
وفي يميني ان ادخل في زمرة الرعاة ،
وان اجدد نشاطي في ظلال الواحات
حين ارتحل في رفقة القافلة
متجرا في الشال والبن والمسك
وفي عزمي أن اسلك كل سبيل :
من البادية الى الحضر ، ومن الحضر الى البادية
اي حافظ ! ان اغانيك لتبعث السلوى
ابان المسير في الشعاب الصاعدة الهابطة
حين يغني حادي القوم ساحر الغناء ،
وهو على ظهر دابته ،
فيوقظ بغنائه النجوم في اعلى السماء
ويوقع به الرعب في نفوس الاشقياء
وانه ليحلو لي ، اي حافظي الاقدس ، ان احيي ذكراك
عند الينبوع الصافي ، وفي حانات الصهباء .
وحين تكشف المحبوبة عن نقابها قليلا
فيفوح منها منتشرا عبير المسك والعنبر .
اجل ! ان مايهمس به الشاعر من حديث الحب ،
ليحمل الحور انفسهن على أن يعشقن
فان شئتم الا ان تحسدوا على الشاعر هذا الحظ
او ان تحرموه منه وتعكروا صفوه عليه ؛
فاعملوا اذن ان كلمات الشاعر وقوافيه
تحلق دائما ، دائما ، وهي دائما في تحليق ،
فارعة ابواب الفردوس بهمس وهدوء
ناشدة لنفسها حياة خالدة

والمقطوعة مؤرخة في المخطوطة في يوم ٢٤ كانون الاول سنة ١٨١٤ وهي تعطينا ، كما قال گوته نفسه « معنى وغاية الكتاب ككل [اي الديوان الغربي الشرقي] ؛ اضافة الى توفير معارف كثيرة ... يعتبر الشاعر نفسه مسافرا . وسرعان مايصل الى الشرق . فيسر بما يجده هناك من عادات وتقاليد ؛ واشياء تمتع النظر ، ويعجب بالافكار الدينية وبشتى الاراء ولاينكر التهمة الموجهة اليه بانه مسلم »(٤٧) .

وتشير هذه الجمل الى الطابع الكشفي لمقطوعة هجرة : فهو يصور فيها البلدان والصور التي ينوي الشاعر الذهاب اليها ؛ « مسافر » . لقد جمع گوته في هذه المقطوعة كل انطباعاته التي كان قد جمعها عن الشرق اثناء المرحلة الاولى لدراسة الاداب الشرقية .

واول مصدر نطالعه عن دراساته للاداب الشرقية في سنة ١٨١٤ هي يومياته التي دونها في فترة مكوثه في فينا من ٤ ـ ٢٢ كانون الاول ، وتضاف اليها ماتلقاه فعلا اثناء مكوثه في هايدلبرك من ٢٤ ايلول الى ٩ تشرين الاول ، ١٨١٤ : كان گوته في تلك الفترة التي لم يدون فيها يومياته ، لكنه ترك لنا بعض مقتطفات من رسائله ، ضيفا دائميا عند المستشرق الهايدلبركي باولص حيث يتوقع ان الحديث الذي دار بينهما لم يقتصر على المواضيع الشرقية فحسب ، بل تعداه الى اطلاع گوته على محتويات مكتبة المستشرق ومطالعة ترجمة هارتمان للمعلقات . كما كان گوته يحاور اثناء الاسابيع التي قضاها في ڤينا المستشرق لورسباخ ويستخدم مكتبته ومكتبة الباحث المستشرق كنيبل .

وقد سبقت انشاء مقطوعة (هجرة) في كانون الاول ١٨١٤ دراسات مكثفة وبدل الاسلوب الذي يشير به گوته الى اهم مراحل الشعر الشرقي على ان شاعرنا كان ملما الماما واسعا بالحقل الذي يعمل فيه وعارفا بما كان يتحدث عنه، كما يتضح لنا من مخطوطة تلك الرسالة الموجهة الى گوتا بتاريخ ١٦ مايس ١٨١٥ : فهو يدون في تلك الرسالة نثرا كل الافكار التي وردت فيما بعد شعرا في مقطوعة (هجرة) . ولما ورد الحديث في نص الرسالة عن المعلقات فان مقاطع من مقطوعة (هجرة) تركزت على عالم الشعر العربي المبكر بشكل لم يسبق له مثيل . واشار كثير من دارسي الشعر الشرقي الى ان المقطع الرابع من مقطوعه (هجرة) تصف طابع الحياة البدوية ، ونذكر منهم فون لوير وكونراد بورداخ وايرما تنكر . ويشار عادة اثناء تحليل مقطوعة « ذروني اسكب العبرات ، محاطا بالليل » الى الشبه القائم بينها وبين المقطع الرابع لمقطوعة (هجرة) . فالموقف هنا شبيه بالموقف هناك :

الشاعر « يرتحل في رفقة القوافل » ، ويعايش الرعاة وحداة الابل في الصحراء . ولم يتطرق الباحثون الى ذكر المعلقات في هذا المجال لانهم غفلوا عن مؤثراتها على المقطوعة المذكورة اعلاه (٤٨) . ولنتامل اولا المقطع الثالث من (هجرة) . ترد فيه أقوال شتى واجه في تأويلها المعلقون كثيرا من الصعوبات؛ ومما زاد في صعوبة الامر عدم توفر

تفسير يستند على المصادر حتى ذلك الوقت . ولنورد الابيات اولا وهي الابيات ١٥ ومايليها :

هنالك اود التملي بحدود الشباب فيكون ايماني واسعا عريضا ، وفكري ضيقا محدودا واود ان اتعلم كيف كانت تقدس الكلمات لاشيء الا لانها كلمات فاهت بها الشفاه

وترتبط هنا وجهتا نظر باسلوب ملفت للنظر : ١ ـ الاشادة بزمن ماض يقتصر على ابسط نمط من النشاط الذهني ؛ ٢ . التاكيد على اهمية الكلمة المنطوقة في زمن كهذا ووصفها بانها « مقدسة » . وقد تباينت آراء المعلقين حول « الكلمة المنطوقة » ؛ فاغلبهم يفهمها بانها تعني « المثل » ؛ بينما يعتبرها اخرون الكلمة المنطوقة بالضد للكلمة المكتوبة . ويسعى البعض الى ترجيح هذا التاويل ونبذ ذاك او ترجيح ذلك ونبذ هذا بدلا من التفكير في وجود غموض في التفسيرين ؛ وهو في راينا اصوب الامور . وسنأخذ فيما يلي كلا التفسيرين بنظر الاعتبار . ولنطالع المقدمة التي كتبها هارتمان لترجمة المعلقات لنجد ان هاتين النقطتين بالذات قد نوقشتا لمرتين : الزمن الماضي والكلمة المنطوقة ، وفي كلتا الحالتين وصفت الكلمة المنطوقة بانها « مقدسة » ! ويقول هارتمان في في مقدمته المذكورة عن « الحكم والاقوال المأثورة ، والامثال البليغة او ماشابهها [!] ... والتي يزين بها الشعراء العرب معلقاتهم باسلوب جميل (ص ٣٣) مايلي :

لانجد » عند كل الاقوام التي خرجت من طور الطفولة دون ان تبلغ مراحل متطوره في ثقافتها الذهنية ؛ تعاليم ومبادىء اخلاقية وحكمية ثابته القواعد ومنتظمة الاسس ومفننة في اشكال علمية ؛ بل اننا نجد عندها مجرد حكم واقوال وامثال هي خلاصة تجاربها في الحياة او نتاج آرائها في الفضيلة والرذيلة والسعادة والتعاسة . وهي في الوقت نفسه مثلهم الخلقية وبواكير قوة الملاحظة عندهم ، لذا فانها جديرة بالاحترام والتقديس وفيها النفع ... واعدت لتصل الى القلب وتنطبع في « الذاكرة .

ويبدو هذه الجمل وكانها تعليقات على البيت ١٥ وما يليه من مقطوعة (هجرة) . وتدل بعض الكلمات بكل وضوح على ان كوته تاثر بها الى حد بعيد . فالتعبير الفريد « كلمات فاهت بها الشفاه » والتي كانت « تقدس » (بيت ١٧ ومايليه) ، تشير بصيغتها الخاصة الى انها اخذت من مصدر. ويصف هارتمان ذلك النمط من « الامثال » التي يحتويها الشعر العربي المبكر بانها « مقدسة » . كما انه يصف « الثقافة الذهنية » لعرب الجاهلية بانها « لم تكن قد بلغت مراحل متطورة » . ويستخدم كوته ايضا عبارات فريدة شبيهه بما ورد في نص هارتمان : « اود التملي هنالك بحدود الشباب .

فيكون ايماني واسعا عريضا ، وفكري ضيقا محدودا » ؛ حيث تجد كلمة « الايمان » نفسها تاكيدا في تعليقات هارتمان اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار الاهمية التي اولاها لـ « حكم » الشعراء ووصفها بانها « مثلهم الخلقية » . بيد ان ارتباط نص كوته بنص هارتمان يبرز بأوضح صورة في ترتيب الافكار ، حيث يدهشنا ترتيب ورودها في ابيات مقطوعة (هجرة) :

من البديهي ان يتساءل المرء عن سبب انتقال الشاعر من مدح النشاط الذهني « الضيق » الى اجلال الاقوال المأثورة مباشرة ، بينما كان من الممكن ان ترد الافكار بترتيب مختلف ولعله بترتيب مختلف ولعله ترتيب افضل . والغريب ان افكار هارتمان ترد بالترتيب نفسه : فهو يبدأ بوصف مفصل لثقافة العرب المبكرة والمنبثقة من « عهد الطفولة » ، ثم يلي ذلك الخوض في قيمة الكلمات التي فاهت بها الشفاه ، وهي « الامثال » ، ويرد هنا ايضا ، كما وجدنا عند كوته ، نعت « مقدس » قبل كلمة (الامثال) وليس من المعقول ان يكون هذا التوافق في ترتيب الافكار ومضمونها محض صدفة . فلو تأملنا النصين لوجدنا ان الافكار في كليهما ترتبط ببعضها بظرف مكان لايلفت النظر . فهارتمان يقول :

عند كل الاقوام التي خرجت من طور الطفولة . نجد ... امثالا . ويقول كوته : هناك في حدود الشباب ، تقدس الكلمة المنطوقة . هذا عن تطابق نص هارتمان مع نص كوته لو كان تعبير « الكلمة المنطوقة يعني الحكمة ، الامثال ... الخ . ولو افترضنا الان ، مع المعلقين الاخرين ، بان العبارة تعني « الكلمة المنطوقة » بالضد من الكلمة المكتوبة ، لظهرت لنا فقرة اخرى من مقدمة ترجمة المعلقات لهارتمان تستحق الاهتمام ونصها كما يلي (ص ٤) :

« كانت هذه القصائد ذات فائدة كبيرة حين

أنها كانت في الازمنة الغابرة تأخذ مكان الكتابة المدونة بالحروف وكانت تخدم العرب كسجلات ومجلات تدون فيها احداث الماضي ، فهي بذلك كنز دائع لمعارف اللغة وحكمها ... وكانت تلك القصائد بالنسبة للعرب ، كما هي بالنسبة لكل الاقوام الفنية ، والتي كانت في مرحلة تطور مشابهة لهم ، ديوانا لحفظ تاريخ الاحداث المهمه ودعم الذاكرة ، بل انها كادت ان تكون الوسيلة الوحيدة لنقل احداث الماضي الى الاجيال » .

وتبدو هذه الملاحظات وكأنها تعليقات على الابيات ١٥ ومايليها من مقطوعة (هجرة) . فالحديث هنا أيضا عن « الازمان الماضية » ، وعن « الاقوام الفنية » وتعزى بدائيتهم هنا الى غياب « الخط المدون عندهم ؛ وبدلا من ذلك فان لديهم « القصائد » ذات « الفائدة القصوى » ، لانها « تمثل » الكتابة المدونة . وتحتفظ الكلمة المنطوقة في تلك القصائد بأحداث السلف « المهمة » وهي في الوقت نفسه « كنز رائع لمعارف اللغة وحكمها » . وتعبير كوته عن « الكلمة » التي كانت تقدس هناك ، لا لشيء الا لانها كلمات فاهت بها «الشفاه» ، يمت بصلة وثيقة بهذه الفقرة التي اوردها هارتمان . (ويشير هارتمان في موضع آخر مرة اخرى الى ان : » القلة القليلة بين العرب كانت تحسن فن الكتابة » .(٤٩) .

ونستخلص من تأويل مقطوعة (هجرة) ما يلي : حتى اذا اعتبرنا نص هارتمان مصدرا لافكار كوته فان تعبير « الكلمة المنطوقة » في البيت ١٧ يمكن ان تعني المثل ويمكن ان تعنى في الوقت نفسه الكلمة المنطوقة بالضد من الكلمة المكتوبة ويصح التاويلان ولايجوز لنا نبذ احدهما لمصلحة الاخر ، كما لايجوز لنا عصر فكرة الشاعر اذا ماتعمد طرح فكرة تحتوى على تأويلات متباينة ، لذا فان هذا النموذج الذي امامنا يوضح لنا كيف ان تباين التأويلات قد يعود الى منبع واحد .

وان هذا التقويم الايجابي ل « حدود الشباب » و « التملي » بمديح زمان كان فيه « الفكر ضيقا » ـ كما يرد في المقطع الثالث من (هجرة) ـ يستانف باسلوب اقل بلاغة ماورد في نهاية المقطع الثاني : « دون تحطيم الراس بالتفكير » ان كوته لايتجه كشاعر (الهجرة) الى « الشرق الطاهر الصافي » هربا من اهوال الحرب السائدة آنذاك فحسب بل يريد الخلاص من عالمه الذي ضاعت قيمه الروحية وتضاربت فيه نزعات الفلاسفة ودب بينهم دبيب الشقاق ويعتبر عالم المعلقات من تلك العوالم التي تاقت لها نفس كوته ورأى فيها « الطهر والحق والصفاء » (بيت ٧) ، بالضد من عالم اوربا الذي اصبح جحيما لايطاق .

اما تصوير فترة القصائد المعلقة بانها زمن بداية وانبعاث « الثقافة الذهنية » فانه يرد عدة مرات في تعليقات هارتمان . ولعل هذه التعليقات هي التي استمد منها كوته موضوع الزمن المبكر الذي لم تكن فيه الثقافة الذهنية متكاملة . يقول هارتمان في مقدمة ترجمة المعلقات ، ص ٢٤ ومايليها :

« ولا يجوز ان يغرب عن بالنا ابدا بأن شعراء المعلقات كانوا رعاة جوالين ، يجوبون الصحارى المترامية الاطراف مع قطعانهم . وتبعا لذلك فقد كان نمط حياتهم رتيبا جدا . كما كان خزين خبراتهم محدودا [قارن كوته : حدود الشباب]. ولما كانوا في ادنى مراحل الثقافة ، حيث اجنحة الجبان عندهم غير مبتورة [قارن قول كوته: فيكون ايماني واسعا وفكري ضيقا ومحدودا] ، والعواطف غير مقيدة والقلوب متفتحة امام الشاعر ، فان لغتهم التي تفتقر الى الافكار المجردة ، تتسم مثلهم بالحسية والحرارة البالغة ... فهم شعراء بالفطرة »(١) فارن أيضا ص ٥ . (من المقدمة) :

« واخيرا فان شعراء المعلقات يطرحون ، اذا مانبرى لدراستهم المؤرخ الفطن المحب للتاريخ القديم ، مادة غنية بشتى الصور التي تكشف روح ايام البطولة وجوهر الانسان الذي يحيا فترة النهوض العقلي » ـ وعلى ص ٢٤ : « كان العرب في الفترة التي سبقت ظهور محمد [صلى الله عليه وسلم] يحيون على الطبيعة وهم في رحيل دائم ... » :

اما المقطع الثالث من مقطوعة (الهجرة) فهو تأكيد وتكميل ويرتبط ارتباطا وثيقا بالمعلقات . ويبرز هذا الارتباط بصورة خاصة في البيتين الاولين (البيت ١٣ وما يليه، وهما البيتان اللذان يسبقان الابيات ١٥ ومايليها مباشرة) . ولايتضح معنى هذه الابيات بدقة الا بعد ادراك ذلك الارتباط القائم بينها وبين المعلقات (بيت ١٣ ومايليه):

هنالك ، حيث كان الاباء يقدسون

وعن الخضوع لاي غريب يمتنعون

ويعتبر التفاخر بالاجداد من ابرز مواضيع

المعلقات وأقدمها مكانة (٥٠). ويصح القول نفسه في موضوع التمرد على الحكم الغريب . ويرد الموضوعات سوية في بعض المعلقات (مثلا في قصائد لبيد وعمرو والحارث) . ونستشهد هنا بمقطع نموذجي من قصيدة عمرو بن كلثوم (ص ١٨٦ ومايليها) :

الا لايعلم الاقوام اننا
تضعضعنا وانا قد ونينا
الا لايجهلن احد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا
باي مشيئة عمرو بن هند
نكون لقيلكم فيها قطينا
ورثنا مجد علقمة بن سيف
اباح لنا حصون المجد دينا
ورثت فهلهلا والخير منه
زهيرا نعم ذخر الذاخرينا
وعتابا وكلثوما جميعا
بهم نلنا تراث الاكرمينا
وذا البرة الذي حدثت عنه
به نحمي ونحمى المحجرينا

[ثم تلي ابيات عن بطولات الحرب]

وقد علم القبائل من معد
اذا قبب بابطحها بنينا
وانا المانعون لما اردنا
وانا النازلون بحيث شينا
اذا ما الملك سام الناس خسفا
ابينا ان نقر الذل فينا

وهكذا فاننا نجد كلتا الفكرتين في المعلقات : النزعة الفخوره الى الاستقلال عند قدماء البدو وتسجيل الاجداد ، ويربطهما گوته في ذهنه حين يقول :

هنالك ؛ حيث كان الاباء يقدسون
وعن الخضوع لاي غريب يمتنعون

ويشير هارتمان نفسه في تعليقاته الى هذا الترابط بين الفكرتين باسلوب مؤثر شبيه بتعبير گوته ، حين يستشهد بقصيدة عمرو بن كلثوم (ص ١٧٢ ومايليها) :

« وعمرو بن كلثوم . يذكر متفاخرا ... بطولات اجداده من بنى تغلب ، ويمدح الاستقلال الذي حافظوا عليه على الدوام ويعيب في الاعداء انهم خضعوا لنير الطاغية واستلموا الحكم ملك غريب [!] » وتجدر الاشارة هنا الى ان گوته يقصد بكلمة (الاباء) في البيت ١٢ ومايليها من مقطوعة (هجرة) بدو الصحراء وليس رجال العهد القديم من الكتاب المقدس ؛ كما قد يتبادر الى ذهن البعض .

وكان المعلقون قد فطنوا الى ان المقطع الرابع من مقطوعة (هجرة) يصف عالم البدو . كما انهم ادركوا ايضا الشبه بين هذا المقطع ومقطوعة « ذروني اسكب العبرات ، محاطا بالليل (٥١) » . ولكن علينا الان ؛ وبعد كشفنا عن ارتباط هذه المقطوعة بالمعلقات ؛ ان نعيد النظر في تقويم ذلك التشابه ويحتمل ان تكون مقدمة هارتمان التي تصدرت ترجمة المعلقات قد اثرت في انشاء المقطع الرابع من (الهجرة) ، البيت ٢١ ومايليه :

حين ارتحل في رفقة القافلة
متجرا في الشيلان والبن والمسك
وفي عزمي ان اسلك كل سبيل :
من الصحراء الى الحواضر

وهكذا يدور الحديث عند هارتمان (ص ٧) عن :

« قطعان الابل الكثيرة المحملة بافخر الاقمشة واندر التوابل وانفس البضائع » وكانت هذه القوافل العائدة لاهل الصحراء ، كما يقول هارتمان ، تتجه الى المدن ويواصل هارتمان حديثه (ص ١٧) قائلا :

« كان اهل الصحراء يحصلون من الجمال على طعامهم ويجلبون على ظهورها كل حاجاتهم من اقاصى اطراف بلاد العرب ، كالخبز والتمر والخمر ... الخ ، وينقلون الى اهل الحواضر مازاد عن حاجتهم » .

وتجدر الاشارة هنا الى فكرتين مترادفتين بين بيتين في مطلع مقطوعة (الهجرة) والكلمات الاولى لمقدمة هارتمان ، وهى تتصدر الصفحة الاولى من الكتاب وقد طبعت بحروف غليظة وابرزت بخطوط مميزه تحتها . ونص على مايلي (المقدمة ص ٣ ومايليها) :

« لقد نظمت المعلقات التي اقدمها هنا للقراء بترجمة جديدة بين اهل صحارى بلاد العرب القاصية والذين يشبهون الهداة المرسلين [!] في التقاليد والسجايا وانماط الحياة ، وكانوا يجوبون مع ابلهم الصحارى المترامية الاطراف بين الفرات

والنيل حتى اعماق جزيرة العرب ، مفضلين حريتهم على الغنى والرفاه »

والعلاقة واضحة دون شك بين البيت الرابع للمقطع الاول من (الهجرة) ، البيت ٣ ومايليه :

فلتها جر اذن الى الشرق الطاهر الصافي
كي تستروح جو الهداة والمرسلين ..

وكانت المقطوعة اصلا تنص في البيت ٤ على مايلي :

« كي تستروح جو الجنة » لكن ملاحظات هارتمان تذكرنا ايضا بالجنة لان الفرات والنيل من الانهر الاربعة التي يذكرها موسى لتحديد موضع جنة عدن ! كما ان تغيير « جوالهداة والمرسلين » الى « جو الجنة » يلعب دورا مهما في نزول الامر وان كلمة « جنة » ترد في نهاية مقطوعة الهجرة مرة اخرى ، بيت ٤٠ ، ولكن بمعنى آخر ، وقد اراد الشاعر تجنب التكرار . ولعل گوته وجد في مصطلح « جو الهداة المرسلين » المعنى النموذجي الخاص فاختارها . ولا يستبعد ان تكون مقدمة هارتمان مصدر هذا المصطلح ، لان النص الذي سنورده فيما يلي ، يرتبط ايضا بمقطوعة گوته (ص ٤) وما يليها من المقدمة :

« ان هذه القصائد انعكاس صاف لروح العرب وطبائعهم وتقاليدهم وعاداتهم قبل ظهور محمد [صلى الله عليه وسلم] ، وتعتبر كنوزا رائعة حتى ايامنا هذه لما تتميز به من نمط التفكير والطيبة والنقاء الاصيل لاولئك الحداة ... والمعلقات تعكس اخلاق العرب الذين يحبون فترة نهوض العقل » ولهذا النص شبه كبير بمطلع المقطع الثاني من مقطوعة (هجرة) الى حد صياغة الكلمات (البيت ٧ ومايليها) :

الى هنالك حيث الطهر والحق والصفاء ،
اود ان اقود الاجناس البشرية ،
حتى انفذ بها الى اعماق الماضي السحيق .

ولنترك الان بحث عدد العناصر الشعرية في مقطوعة (هجرة) والتي يمكن ان نجد لها اصولا في مقدمة هارتمان الخاصة بالمعلقات . اذ ان بعض المقاطع ، وخاصة المقاطع ٣ و ٤ ، متاثرة مباشرة بعالم المعلقات ؛ وتعيننا هذه الحقائق على تعميق فهم مقطوعات الديوان . ومن اوضح الظواهر التي تجلب انتباهنا في مقطوعة (هجرة) ظاهرة انتقال الشاعر بين الازمان . فهو يذكر الخضر والمرسلين في المقطع الاول فينقلنا الى اقدم مرحلة ؛ ولابد ان يكون كوته قد قرأ عن الخضر وعرف بانه كان معاصرا لموسى (٥٢) . ويبتعد بنا الشاعر في المقطع الثاني الى عصور اقدم عهدا : في « اعماق الماضي السحيق حين كانت كانت الاجناس البشرية تتلقى مباشرة من لدن الرب وحي السماء بلغة اهل الارض » ؛ ويمكننا هنا ان نتذكر الواح الوصايا التي حملها موسى ، بل الافستا المنسوبة الى زرادشت ، وبطبيعة الحال القرآن الذي اوحي به الى محمد [صلى الله عليه وسلم] . وتستحضر المقاطع ٣ و ٤ عالم صحراء البدو ، عالم شعراء المعلقات . وتنتقل بنا المقطوعة ـ ابتداءا من المقطع ٥ ـ الى فترة حافظ الشيرازي لكن الذي يلفت الانظار هو بقاء گوته طويلا عند البدو العرب وخاصة في المرحلة الاولى لانشغاله بدراسات الشرق التي سبقت وضع ديوانه الذي تاثر كثيرا بافتتانه بالشاعر حافظ لكن گوته حين قال :

« اود ان اقود الاجناس البشرية ، حتى انفذ بها الى اعماق الماضي السحيق » (المقطع ٢) ويهرب من عالمه الصاخب « كي يستروح في الشرق الطاهر الصافي جو الهداة والمرسلين (المقطع ١) ، لم يستطع ان يجد الاصالة والحيوية والفطرة والعفوية الا عند العرب من بدو الصحراء الذين حافظوا على تقاليدهم الاصلية (٥٣) . فقد حافظ البدو عبر الاف السنين على طابع حياتهم القريبة الشبه بحياة قدماء آباء العهد القديم من « المرسلين » العبرانيين (٥٤) . ولابد ان هذه الصور كانت تتراءى امام گوته حين سار بنا بمقطوعة (هجرة) الى « اعماق الماضي » التي يجسدها البدو عند شعراء المعلقات .

اني لك هذا ؟

ويبدو ان المقطوعة الثانية التي يشير اليها گوته في رسالته المؤرخة ١٦ مايس ١٨١٥ (٥٥) هي اول مقطوعة في « كتاب الحزن » (٥٦) :

« اني لك هذا ؟
وكيف امكن ان ياتيك ؟
وكيف استخلصت
من اسمال الحياة هذه الذبالة
التي تيسر لك من جهد
ان توقد آخر شعلة
في نيرانك » ؟ .
ولا يخطر ببالك

ان هذه الشملة معتادة ؛
في اقصى الاقاصي
في محيط النجوم
لم اضل
بل كنت احيا حياة جديده
في الليالي الرهيبة
تحت تهديد الغارات
بينما هدير الابل
ينفذ في الاذن والنفس
ويملأ الحداة
بالخيال والفخر
وباستمرار تقدم السير
وباستمرار اتسع المكان
ورحيلنا كله
بدا فرارا ابديا
وخلف البيداء والجيش
يرف شريط ازرق من بحر خداع .

يصف الشاعر هنا في المقاطع ٣ ــ ٥ طابع الحياة البدوية مرة اخرى ، باسلوب شبيه بالوصف الوارد في (هجرة) ولكنه اكثر تفصيلا . لقد اشار المعلقون الى توارد هاتين الفكرتين لكنهم لم يفطنوا الى ان تشابه الفكرتين في المقطوعتين متعلق في الوقت نفسه بالارتباط المشترك بالمعلقات وكان لمقطوعة « اني لك هذا ؟ » الواردة في سجل فيزبادن (المؤرخ ٣٠ مايس ١٨١٥) عنوان خاص آخر هو : « قوافل » . ويدل هذا العنوان على درجة القربى مقطوعة (هجرة) هي « هجرة » (بيت ٣) ، بينما هي في مقطوعة « قوافل » ارتحال ، لكن هذا « الارتحال » ذاته لايخلو من فكرة الهجرة (بيت ٢٧ ومايليه) :

ورحلينا كله
بدا فرارا ابديا . .

وتختلف مقطوعة « قوافل » عن مقطوعة « هجرة » في ان وصف حياة البدو هو الموضوع الاساس لمقطوعة « قوافل » . فثلاثة مقاطع من مجموع خمسة مخصصة لذلك الموضوع، بينما يخصص مقطع واحد فقط من (هجرة) ، وهو الرابع ، للذلك الموضوع . واستنادا الى هذه الحقيقة يمكننا ان نفترض تحديد انشاء مقطوعة « قوافل » . فالذي نعرفه هو انها انشئت قبل ٣ مايس ١٨١٥ لانها وردت في سجل فيزبادن . ونذكر هنا ملاحظة وردت في كراس مذكرات گوته في يوم ٢٣ شباط ١٨١٥ : « [قبل الظهر] المعلقات . احوال البدو » ففي هذا اليوم ينشغل گوته ، طوال النصف الاول من اليوم ، بدراسة « احوال » البدو . والاحتمال كبير بان المقطوعة نظمت اثناء هذا الانكباب ، وهي تحتل موضعا كبيرا في الديوان في وصف حياة البدو : « اني لك هذا ؟ » (« قوافل . وتوحي الكلمات المدونة في يوميات گوته « احوال البدو » بعد ذكر جلسه قراءة شعرية مثيرة (قبل ظهر اليوم الذي انشئت فيه المقطوعة !) ، بانها كانت تعني تاريخ تدوين المقطوعة ، تبعا لعادة گوته في مثل هذه الاحوال . ويدون گوته في ٢٧ شباط ١٨١٥ ولمرات عديدة :

« [قبل الظهر] المعلقات » وتمت بعد ذلك بيوم واحد ، اي في يوم ٢٨ شباط تلك القراءه الشعرية عند الدوقة لويزه (٥٧) . لذا فلابد ان مقطوعة « اني لك هذا ؟ » (قوافل) قد انشئت في ٢٣ شباط او بعد ذلك اليوم بوقت قصير ، اذ ان گوته كان منشغلا بدراسة ترجمة هارتمان للمعلقات في يوم ٢٣ شباط والايام التالية له . وكان قد استعارها في يوم ٢٢ شباط من مكتبة فايمار (٥٨) ؛ وان نظرة واحدة الى « مقدمة » هارتمان ذات التاثير الكبير على گوته ، ترينا بوضوح بان مصطلح « احوال البدو » الوارد في ملاحظات الشاعر المدونة في يومياته في ٢٣ شباط ١٨١٥ ، ماخوذ من تلك المقدمة . والحديث طويل في هذه « المقدمة » ، اثناء وصف « حياة البدو » العرب ، عن « وضع حياتهم » و « وضع عاداتهم » ؛ او ان هارتمان يتحدث عن « البدو » الذين « كانوا يحيون على الطبيعة حياة البداوة في التجوال المستمر » مع « قطعانهم من مكان الى مكان » ... الخ (قارن « قوافل » بيت ٢٧) . وهكذا يمكن اعتبار مصطلح « حالة البدو » عنوانا لاجزاء كثيرة من « مقدمة » هارتمان . الاولوية في مقدمته . ولنتامل اولا ظاهرة خاصة جدا تذكر في بيتين من ابيات المقطع الثالث ، الا وهي الضيافة التي يمجد بها الشاعر (بيت ١٥ ومايليه) :

يعتني بي الرعاة الجادون
وهم يستضيفون بالرغم من شحة مالديهم .

ويتحدث هارتمان عن ضيافة العرب على الصفحة الاولى من مقدمته واليكم الجملة الاولى :

« كان العرب قبل محمد [صلى الله عليه وسلم] يتفاخرون ! . بالسيف الذي يحمون به اخوانهم في الضيق ويثارون لاية اهانة تلحق بهم

ويدافعون به عن وطنهم ٢ . بالضيافة لاستقبال الغرباء ومشاركتهم بما يتوفر لديهم من زاد [!] ؛ ٣ . بالفصاحة للتغني ببطولات اجداد القبيلة المجيدة ... »

وكما سنرى فان هذا الجزء من مقدمة هارتمان بل واجزاء اخرى يمكن اضافتها ، يتطابق مع ابيات گوته المشار اليها في النقاط التالية ١ . « حب الضيافة بالرغم من قلة الزاد المتوفر » (حيث يقتسم العرب ماعندهم من الزاد مع الضيف) ، وهي بطبيعة الحال استضافة « متواضعة » ؛ ٢ . « العناية » التي يلقاها الضيف عند البدو المعروفين بحسن الضيافة « وحماية » الغريب ضد « الاخطار » ؛ واخيرا الكلمة المضافة « جادون » (بيت ١٥) ويجمل هارتمان كل هذه المزايا هنا في النقطة [١] : التفاخر بالسيف والثار لكل اهانه ، والثار لدم القتيل والنزعة الحربية الى الحرية . وكل هذه الظواهر تمثل مواضيع مالوفة نموذجية عند شعراء المعلقات . ولهذا السبب فان هارتمان يعتبر القصائد المخصصة في مدح تقليد الاخذ بالثار ، والتي يصفها بانها « اجمل واروع القصائد » ، « شعرا جادا » (ص ٢٥) ، او ان كل قصيدة منها قد نظمت » بنبرة جادة ومتشددة (ص ١٠٠) (٥٩) . كما انه في (النقطة رقم ٣) يشير الى « بلاغة » العرب التي ترد في ابيات گوته (البيت ٢١ ومايليه) :

بينما رغاء الابل
ينفذ في الاذن والنفس
ويملأ الحداة
بالخيال والفخر

ولنواصل اولا متابعة موضوع حسن الضيافة ، حيث يعود هارتمان اليه في مقدمته مرة اخرى وبتفصيل اوسع (ص ٢٧ ومايليها) :

« وكما هو معروف لدينا من الشعر العربي وادب الرحلات الحديثة الى بلاد الشرق ، والكرم . ولايحرم العرب حق الضيافة المقدس حتى عن العدو ان دخل عليهم فهم يحمونه عن مطاردبه [!] ... وهذه السجية البارزة في اخلاق البطل العربي والتي تشكل نقيضا جميلا للنزعة المادية في الخلق العربي، ليست الطابع المميز لروح المعلقات فحسب ، بل انها جوهر الشعر العربي القديم ... (ص ٢٩) . فكما ان شعراء المعلقات يتباهون ببطولاتهم الجريئة في النزال وركوب المخاطر وبحسن الضيافة والايثار فانهم يفاخرون الامم بالاخلاص والكرم ... الخ . انهم ينصفون المظلوم ويحمون حقوق الايتام ويحفظون العهد ويرعون الارامل وينصرون القبيلة في وقت الضيق ويساعدون المحتاجين ـ هذه هي سجايا العرب ... »

ويتضح من هذا كيف ان گوته اختار ابرز الصفات حين مدح حسن الضيافة عند البدو ، فقد كشف جانبا من خلقهم في (البيت ١٧ ومايليه) :

انهم اناس هادئو الطبع وطيبون
حتى اني آنس لكل واحد منهم .

ويعني هذا بان گوته كان جريئا الى حد بالغ حين صور بدو الصحراء بتلك الكلمات وهم قوم عرفوا بشدة البأس في القتال . ولكنه يعود في الابيات التالية الى حياتهم الزاخرة بالقتال (بيت ١٩ ومايليه) :

في الليالي الرهيبة
تحت تهديد الغارات ...

بيد ان حسن الضيافة وحماية الدخيل هما صفتان مكملتان في الصورة التي اراد گوته ان يرسمها لاخلاق البدو ويوليها المكان البارز الذي تستحقه . الم يقل الشاعر عنتره بن شداد في مغلقته (ترجمة هارتمان ص ١٥٢) :

اثنى على بما علمت فانني
سمح مخالقتي اذا لم اظلم ...
واذا صحوت فما اقصر عن ندى
وكما علمت شمائلي وتكرمي

لقد استخدم گوته عبارات شبيهة حين قال « انهم اناس هادئو الطبع وطيبون » وان كلماته مطابقة للواقع تماما ونجد تفسير جرأته في هذا الوصف اذا بحثنا عن المصدر الذي اقتبس منه فكرته . ولنستمع الى اشارات اخرى للموضوع نفسه في المعلقات بالذات . لقول عمرو بن كلثوم (هارتمان ص ١٩٢ ومايليها) :

وقد علم القبائل من معد
اذا قبب بابطحها بنينا
بانا المطعمون اذا قدرنا
وانا المهلكون اذا ابتلينا
وانا المانعون لما اردنا
وانا النازلون بحيث شينا

وانـــا التاركـــون اذا سخطنـــا
وانـــا الاخـــذون اذا رضينـــا
وانـــا العاصمـــون اذا اطعنـــا
وانـــا العازمـــون اذا عصـــينا

ومن قصيدة لبيد بن ربيعة العامري (هارتمان ص ١٣٩ ومايليها) :

وجـــزر ايسار دعـــوت لحتفها
بمغالـــق متشابـــه اجـــسامهـــا
ادعـــو بهـــن لعاقـــر او مطفـــل
بذلـــت لجيران الجميـــع لحامها
فالضيف والجـــار الجنيب كانما
هبطـــا تبالـــة مخصبـــا اهضـــامها
تاوى الـــى الاطناب كـــل رذيـــة
مثـــل البليـــة قالـــص اهدامهـــا
ويكللـــون اذا الـــرياح تناوحـــت
خلجـــا تمـــد شـــوارعا ايتامـــها
فضلا وذو كرم يعين على الندى
سمـــح كســـوب رغائـــب غنامها

ومن قصيدة طرفة بن العبد (هارتمان ص ٨٠) :

ولست بحـــلال الـــتلاع مخافـــة
ولكن متى يســـترفد القوم ارفد

وندرك بســـهولة لماذا يتناول گوته عند الحديث عن مميزات « احوال البدو » حسن الضـــيافة في المرتبة الاولى ، اذا امعنا النظر في اسلوب حديث الشعراء العرب انفسهم عن تلك الميزة . ان عظـــم مايتفاخر به البدو هو « اكرام الضـــيف عن طيب خاطر » . وسندرك معنى البيت الاخير للمقطع الثالث مـــن مقطوعـــة « قافلة » بصـــورة افضل وهو :

.. حتى اني آنس لكل واحد منهم

لو فسرناه في اطار شعر المعلقات . ولايعنى الشاعر هنا ابدا :

بان كل واحد من هؤلاء « الناس » كـــان يونـــسني ـ ولربما كان هذا اقرب المعاني ، وقد يكون اكثرها ابتذالا ، بل يعنى :

ان كل واحد اتيت اليه آنـــسني بحـــسن الضـــيافة والحمايه التي يمنحها لكل انسان .

اما فيما يخص البيت الـــسابق : « انهم اناس هادئو الطبع وطيبون » ، فقـــد عثرت علـــى راى مشابه له في الطبعة الفرنـــسية لكتاب « رحلة الى شيراز » لمؤلفه ادوارد سكوت وارنك (ص ٢٠١) ، وكان گوته قد قرأ هذا الكتاب اثناء نظم مقطوعة « قوافل » :

« ذهبنا الـــى جنـــوب الـــسهل وشماله ... وشاهدنا خيام البدو الرحل . واعطانا اولئك الناس الطيبون الحليب والزبد وهم يتناولونها بكثرة في مثل هذا الفصل » .

ويذكرنا المقطع الرابع من مقطوعة « قوافل » بحياة اهل الصحراء اليومية المليئة بالقتال ، اذ انهم يعيشون دوما « تحت تهديد الغارات » . هذا هو الجانب من « احوال البدو » الذي لم يغفل عنه گوته في مقطوعته التي تجسد امامنا عالم العـــرب القديم . ولعل تصدر هذا المقطوعة بالذات « كتاب الحزن » (او سوء المزاج) مرتبط بنزعة البدو في الدفاع ، والتي تبرز مرة اخرى في البيت ماقبل الاخير . وتحتل الحروب والاعمال البطولية اوسع مكان في المعلقات . وكل هذه الحروب هي « حروب في سبيل الحرية » ، كما نوهنا عند حديثنا عن مقطوعة « هجرة » ؛ البيت ١٤ (، « ... وعن الخضوع لاي غريب يمتنعون » . وهكذا كـــان باستطاعة گوته العثور على دوافع كثيرة ليمجد بحروب اوربا المستعرة آنذاك ، لكنه لم يفعل ذلك طبعا واكتفى بالحد الادنى من الاشارات الى مظاهر الحرب في المقطع ٤ من مقطوعة « قوافل » . فهو اذ يتحدث عن « غارات » دون الخوض في بيـــان تفاصيلها ، يكتفي بتصوير الجو الـــسائد قبلها وبعدها (بيت ١٩ ومايليه) :

في الليالي الرهيبة
تحت تهديد الغارات
بينما رغاء الابل
ينفذ الى الاذن والنفس
ويملا الحداة
بالخيال والفخر

ومن اجل المدلول الخاص لهذا المقطع المفعم بالصور الحية يبحث گوته ، كمـــا هـــو عهـــده في الديوان ، عن الاســـس الواقعية الاصلية . ولنتامل اولا التعبير المؤثر « رغاء الابل » ، فالتاثير الموحى للمعلقات باد للعيان . لكنني اود الاشارة هنا ، واستنادا الى دراساتي للمصادر الشرقية التي استخدمها گوته ، الى ان هذا التفصيل الـــذي وجدناه في المقطع المذكور اعلاه لم يرد في اي مكان آخـــر ، فهو الوحيد من نوعه : وهـــو هنا مرتبط

بوصف غارة ليلية . فالشاعر الحارث بن حلزه يقول في معلقته (هارتمان ، ص ٢٠٤) :

اجمعوا امرهم بليل فلما
اصبحوا اصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصـ
ـهال خيل خلال ذاك رغاء

ثم تلي هذه الابيات ابيات عديدة اخرى يصب فيها الشاعر اشكال التفاخر المالوفة في المعلقات والتي اصبحت فيما بعد الاساس الذي استند عليه گوته حين قال : « ويملا الحداة ، بالخيال والفخر » ويقول عنترة بن شداد (هارتمان ص ١٥٣) :

بركت على جنب الرداع كانما
بركت على قصب أجش مهضم

وينشد طرفه بن العبد (هارتمان ص ٨٢) :

اذا رجعت في صوتها خلت صوتها
تجاوب اظار على ربع ردى

وفي قصيدة عمرو بن كلثوم (هارتمان ص ١٨٠) :

فما وجدت كوجدي أم سقب
اضلته فرجعت الحنينا

ويرد في مقدمة هارتمان (ص ٣٥) :

« اولئك الشعراء ... يشبهون ... رغاء الابل النحيفة بانغام القصب على ضفاف الانهار »

ويعلق هارتمان على قصيدة عمرو بن كلثوم (ص ١٦٥ ومايليها) قائلا :

« هذا العربي ... رمى بسهم نحو الناقة فطرحها ارضا . وحين اطلقت الناقة الجريحة رغاء الهادر قبل ان تنفق ، تالمت وحثت قومها على اخذ الثار » .

ويشترط على شاعر المعلقات ان يكون وصف ناقته من بين الموضوعات التي يعالجها ، اذ ان تركيب القصيدة يتطلب ذلك (٦١) . ويعتبر الوصف المفصل للناقة من ابرز المواضيع التي تميزت بها المعلقات في الادب الشرقي ، وهكذا عرفها ايضا گوته عبر دراساته الخاصة بالشرق . ولعل هذا هو سبب تاثر مقطوعة « قوافل » بموضوع وصف الناقة . لقد وجد گوته بكلمة « رغاء » الابل مفردة شعرية مناسبة بدلا عن مفردات هارتمان الرثة . فالافعال (زفر وناح) تخص فعاليات الانسان اكثر من الحيوان . بيد ان رغاء الابل « لاينفذ » عند گوته « في الاذن والنفس » فحسب بل « ويملا الحداة بالخيال والفخر » . (بيت ٢٣ ومايليه) . لقد دفع البيت الاخير كثيرا من دارسي شعر گوته الى تفسيرات خيالية غفلت عن بيت القصيدة ، لان گوته يحدد هنا عن قصد احدى اهم الميزات الرئيسة للشاعر البدوي : في مطلع مشهد قتال ـ ووصف مشاهد القتال الكثيرة جدا ـ يسترسل الشاعر كالعادة في الفخر بالنفس ويطيل فيه . ويتطرق الشاعر في هذا الفخر بالنفس بلغة شعرية خطابية الى مدح كل شيء تقريبا ذي قيمة عند البدوي : بدءا بالفرس والناقة حتى فضائل العشيرة والاسلاف واعمال المعارك البطولية وصفات الشاعر الذاتية :

الشجاعة والبطولة وعراقة النسب وحسن الضيافة والكرم والسماحة وروح الاقدام...الخ ويذكر هارتمان في مقدمته بلاغة الفخر بالنفس ، وفي مواضع كثيرة ، والمعروف انها كانت مصدر گوته عند دراسته لـ « احوال البدو » (٦٢) . وكان هارتمان وهو يعدد المواضيع الواردة في القصيدة بنسقها المعروف ، يولي موضوع الفخر بالنفس الاهتمام اللائق به (٦٣) . ونستشهد هنا بجزء من تعليق هارتمان على معلقة عمرو بن كلثوم ، وهو جزء نموذجي ويتفق تماما مع ابيات شاعرنا گوته (ص ١٧٣ ومايليها) :

« وتتكون بقية قصيدته من الوعيد ضد اعدائه والفخر بقومه وشهامتهم وشجاعتهم وبحريتهم التي لم يقدر احد على سلبها (٦٤) ؛ والتغني بجودة خيولهم وجمال نسائهم واتساع رقعة املاكهم وكثرة سفنهم ... والقصيدة تقدح بالنار وتتصف بالجراة البالغة والكبرياء والفطرسة ، وتتميز لغة هذه القصيدة بالفخر النبيل الذي ينقلب في بعض الاحيان الى غطرسة واستخفاف بالاعداء » .

هذه هي الحقائق التي كانت حاضرة في ذهن گوته حين تحدث عن « الخيال والفخر » عند رعاة الابل المحاربين . وتحمل كلمة « الخيال » هنا معنى مزدوجا . المعنى الاول يكاد يكون مرادفا لـ « الفخر » (اي الاعتزاز بالنفس ، التفاخر) ، ثم انها تشير الى الخيال وقوة المخيلة ، حيث ان « الفخر » ياخذ عند البدو شكلا شعريا خياليا . ويتحدث هارتمان مرارا عن « قوة المخيلة » عند العرب وهي من مواضيعه المحببة .

قارن في المصدر نفسه ص٩: «تيار قوة المخيلة الملتهبة ص١٨ : « ان الاقوام التي تحيا في ظروف مشابهة من التقاليد كالبدو وتتاثر عواطفها بدوافع مشابهة وتخضع قوة مخيلتها وروحها الى المؤثرات باسلوب مماثل...»، ص٣٤ : «...وهم في تلك المرحلة الاولية من الحضارة ... حيث تنبسط اجنحة المخيلة بطولها وتنطلق العواطف دون قيد » ص ٣٦ ومايليها : « ان شعر الشرقيين...مطبوع بشخص العظيم والشجاع والنبل . قوة المخيلة الملهمة للشرقيين ... »

ولا يستبعد ان تكون عبارة كوته « ينفذ الى الاذن والنفس » ماخوذة من مقدمة هارتمان .

قارن ايضا المقدمة ص ٤ : « ان هذه القصائد تخاطب الاذن والمخيلة في آن واحد » (٦٥) .

ويتحدث المقطع الاخير من مقطوعة « قوافل » عن « سير » البدو الذي هو عماد حياتهم (بيت ٢٥ وما يليه) :

وباستمرار تقدم السير
وباستمرار اتسع المكان
وسيرنا كله
بدا فرارا ابديا
وخلف البيداء والجيش
يرف شريط ازرق من بحر خداع .

ويكثر الحديث طبعا عن « سير » بدو الصحراء في المعلقات ذاتها ، كما في مقدمة هارتمان وتعليقات الباحثين ، ومنها مقتطفات تذكرنا بالبيت ٩ من مقطوعتنا حيث يشار فيها بعبارة « اقاص لا متناهية » الى ترامي اطراف الصحراء ، ولاول مرة .

قارن تمهيد هارتمان ، الصفحة الثالثة (وهي الصفحة الاولى للكتاب) :

« نظمت المعلقات عند اهل الصحارى الممتدة في اقاصي بلاد العرب ... وكانوا يجوبون الصحارى اللامتناهية ... مع قطعانهم . » ويضاف الى ذلك موضع من مقدمة هارتمان ص ٣٤ : « علينا الا ننسى بأن شعراء المعلقات كانوا رعاة جوالين ، ينتمون الى قبائل مختلفة ، ويجوبون الصحارى اللامتناهية مع قطعانهم » . والمصدر نفسه ص ٢٤ : « البدو الذين ... مع قطعانهم من مكان الى آخر » .

وحين يصف كوته « السير » بانه « فرار ابدى » فان علينا التذكر بما يلي ذلك في المعلقات، فشعراء المعلقات يتحدثون عن الفرار في موقفين . ويتعلق الموقف الاول بنزوعهم نحو الحرية . فالمرء يهرب من الطاغية ، من العدو الاقوى . وتبرز هذه النزعة بوضوح في بيت من معلقة لبيد بن ربيعة (هارتمان ص ١٣٦) :

بيت ٥٦
تراك امكنة اذا لم ارضها
او يرتبط بعض النفوس حمامها

ويرد ذكر الفرار في مطلع كل قصيدة ـ وكما راينا ايضا اثناء مناقشة مقطوعة « ذروني اسكب العبرات ، محاطا بالليل ـ حينما يبث الشاعر شكواه لغياب الحبيبة اي لرحيلها . ولنورد لذلك ايضا جزءا من ترجمة هارتمان للمعلقات كمثال نموذجي فيه ايضا شبه آخر بالمقطع الاخير من مقطوعة « قوافل » ، لان في هذه الابيات ، كما في مقطوعة كوته ، اشارة الى السراب من قصيدة لبيد بن ربيعة (هارتمان ص ١٢٢ ومايليها) :

عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تابد غولها فرجامها
فوقفت اسالها وكيف سؤالنا
صما خوالد مايبين كلامها
عريت وكان بها الجميع فابكروا
منها وغودر نؤيها وثمامها
شاقتك ظعن الحي حين تحملوا
فتكنسوا قطنا تصر خيامها
حفزت وزايلها السراب كانها
اجزاع بيشة اثلها ورضامها ...
بل ماتذكر من نوار وقد نات
وتقطعت اسبابها ورمامها

ويضيف هارتمان هامشا توضيحيا الكلمة «السراب» الواردة في البيت رقم ١٥ (ص ١٢٧) :

« وينبغي علينا هنا ان نتصور تلالا او لمان السهول الرملية المترجرجة تحت شمس الصحراء المحرقة كامواج المياه المتحركة والتي تظهر من انكسار ضياء الشمس . لذا تبدو السهول الرملية من بعيد في اغلب الاوقات كبحار بامواج متحركة » .

هذا هو اذا تفسير ظاهرة السراب . فحين يشد الاحبة الرحال فانهم يختفون في « بحار »

وهمية . ولابد لنا هنا من الاشارة الى ورود ذكر السراب في خاتمة المقطع الاخير من « قوافل » ، اذ ينتهي عنده كل « سير » (بيت ٢٩ ومابليه) :

وخلف البيداء والجيش
يرف شريط ازرق من بحر خداع

ويتضح ايضا من مطلع قصيدة الحارث بن حلزه الذي يبكي جزعا لفراق الحبيبة ، كيف ان « السير كله » يبدو في نطاق حياة البدو « فرارا ابديا » (ص ٢٠١) :

آذنتنا ببينها اسماء
رب ثاو يمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببرقة شما
ء فادنى ديارها الخلصاء ...

ويرد في مطلع قصيدة عمرو بن كلثوم اضافة الى البكاء موضوع تاجج العاطفة من جديد ، وهو الموضوع الذي تبدأ به مقطوعة « قوافل » لشاعرنا كوته (ص ١٧٧ ومايليها) :

قفى قبل التفرق ياظعينا
نخبرك اليقين وتخبرينا
قفى نسالك هل احدثت صرما
لوشك البين أم خنت الامينا
فما وجدت كوجدي أم سقب
اضلته فرجعت الحنينا

ونلتقي بهذ الموضوع نفسه مرة اخرى في مجال مختلف آخر، وهو موضوع تاجج نيران القلب من جديد . فالشاعر عنتره بن شداد يصف في نهاية معلقته التي يفتخر فيها بنزعته الى القتال وباعماله البطولية الخارقة ، كيف ان « نفسه تشفى من سقمها ويذهب عمها » حين « يقبل على اعمال بطولية» . وهذا بدوره يذكرنا بمطلع المقطوعة الاولى في « كتاب الحزن » او سوء المزاج » .

ينشد عنترة بن شداد :

ولقد شفى نفسي واذهب سقمها
قيل الفوارس ويك عنتر اقدم
ذلل ركابي حيث شئت مشايعي
قلبي واحفزه بامر مبرم

لقد عالج كوته في مقطوعته « قوافل » الموضوع التالي بالذات :

الامر الذي اجج « نار » قلبه وبعث طاقته الشعرية من جديد وهو في سن الشيخوخة ، وهذا واضح في كل اجزاء ديوانه . وقد فات المعلقين والدارسين بان جواب كوته ياتي مخالفا لما هو متوقع . نعم ان كوته يشير الى لقائه بالشرق ؛ وهو امر صحيح . لكنه ينظر الى الشرق في مقطوعة « قوافل » من زاوية معينة تماما ، فلا يبرز من الشرق الا مقطع واحد هو : « حالة البدو » بكل مميزاتها . لايتحدث كوته مطلقا عن « سمة الحضارة الشرقية (٦٦) » لذاتها او عن العالم الشرقي اللامتناهي (٦٧) ، كما كان شان مقطوعة « هجرة » التي نظمت في وقت قريب من نظم مقطوعة « قوافل » ، وهي شبيهة بها في المضمون . ولاترد فيها كلمة واحدة عن حافظ الشيرازي ـ مع ان هذا الشاعر هو الذي اثر في كوته للبدء بنظم ديوانه ـ . ولا نجد في المقطوعة اي اشارة الى شفاه الحبيبة الشبيهة بالياقوت الاحمر وضفائر العنبر والورد والبلابل والساقي والخمرة وغيرها من متع الشرق التي كان لها تاثير موحى على شاعرنا . وبدلا من كل هذه الامور نجد ان كوته يشير الى صحراء قدماء العرب وطابع حياتها الشاقة وشروطها القاسية ـ بل انه لايلتفت الى سواها (٦٨) . فما هو اذن تفسير ذلك ؟ وتستحق الاجابة على هذا السؤال كل الاهتمام لان موضوع مقطوعة « قوافل » هو من المواضيع الرئيسة في الديوان .

ونقترب من الاجابة الصحيحة اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار بان مقطوعة « انى لك هذا ؟ » تنتهي بابراز موضوع الرحيل ، حيث يعالجه الشاعر باسلوب رائع في المقطع الاخير من المقطوعة : اذ يبدو كل ماسبق وكانه اعداد لما سياتي . فالعنوان الاصلي المخصص لها كان « قوافل » وهو يشير الى لحظة الحركة : ويصاغ ملخص الفحوى في المقطع الاخير . وكان موضوع « الرحيل » قد اصبح موقفا انسانيا مهما في حياة كوته وصيغة لها ، قبل البدء بنظم الديوان ، فقد شغلته منذ ١٨٠٧ روايته عن (سنوات تجوال فلهلم مايستر) . ففي ذلك بالذات ، حيث طغت نزعة نحو التعصب العقائدي في كل مناحي الحياة الانسانية ، ابتداءا من مؤسسات الدولة حتى ادق شؤون الحياة الخاصة ، بدا كوته باتجاه معاكس تماما : نحو الحركة والتغيير ومواصلة السير الى امام . واصبح منهج كوته الاهتمام بالبلدان الاخرى وبالناس وبتقاليدهم ودياناتهم وفنونهم وانماط حياتهم ، لانه احس بنظرته الحكيمة بمخاطر التسمر في الغرور وفي نزعة مجاراة المجتمع والسير مع تيار تقاليده ؛ وكلها ظواهر بدات تطفو في العالم الذي

كان يعيش فيه . ولهذه الاسباب دخل كوته ميدان الجدل كشاعر ، بعد ان كان ينجنبه في المراحل السابقة من حياته . وتظهر من بين مقطوعات الديوان ، وبالذات في تلك المجموعة المكونة من مئة مقطوعة والمذكورة في سجل فيزبادن المؤرخ في مايس ١٨١٥ ، سلسلة من المقطوعات الجدلية التي نظمت لاول مرة بعد فترة «الحكم». وينكشف لغز مقطوعة « قوافل » ان استطعنا قبول الفرضية القائلة بان كوته يعني بها هذا الجانب من التجديد في شعره بصورة خاصة . والبرهان على صحة هذه الفرضية هو ان كوته قد نظم اثناء التنقيح النهائي لديوانه مجموعة شعرية احتوت على مقطوعات جدلية يرفض فيها بعنف كل ما كان يقع من نفسه موقعا ممقوتا(٦٩) ، ووضع مقطوعة « قوافل » في مقدمتها . وحين ادخلت المقطوعة في الديوان كاحدى مقطوعات (كتاب الحزن) انصهرت الى وحدة متكاملة وانحلت عقدة مضمونها وبان المعنى من تلقاء نفسه . لكن (كتاب الحزن) ليس سوى جزء من تلك المقطوعات الشعرية المجددة لشاعرنا ، وهي « قريبة الصلة جدا » في نطاق الديوان ، كما يقول كوته نفسه في (التعليقات والابحاث) ، بكتب التاملات والامثال(٧٠) ؛ ويقول ايضا بان كثيرا من المقطوعات حذفت في اول الامر من كتاب الحزن لانها « بدت مريبة آنذاك »(٧١) ، واصبحت مقطوعات « الحكم الطبيعة » التي بدا نشرها منذ ١٨٢٠ بوتقة افضل لمثل تلك المقطوعات الخاصة باشعار « الحزن ».وكانت عملية نشرها التدريجية بطيئة وامتدت حتى فترة نشر مخلفات كوته بعد موته . وبالنظر لاهميتها البالغة فان مقطوعة « قوافل » تحتل القمة في هذه الحكم الطبيعة التي نظمها كوته في ايام الشيخوخة وهو يصرح لاول مرة بانها مقطوعات جدلية ، اي اشعار « حزن » او سوء مزاج .

وبناء على الاهمية التي تتمتع بها المقطوعة المذكورة يتضح لنا لماذا يصاغ السؤال في « انى لك هذا ؟ » عن اسباب الولادة من جديد بحيث يتضمن في طياته ذلك الجواب الغريب . فبالمفردات « اسمال الحياة » و « الدبالة » و « مض » و « يخطر بالبال » و « الشعلة » في المقطع ١ و٢ ، يرجع صدى عالم الحزن وسوء المزاج وروح القتال، بشكل يفوق على اي حال صدى شعر الحب والخمرة والفردوس . كما ينكشف لنا ايضا الآن لماذا يأتي جواب ذلك السؤال مع تأكيد خاص على « احوال البدو » .

لقد بدا عند كوته « تجوال » جديد ، فكل شيء ينحدر نحو النهر ، وتتجدد العزيمة عن فرز الصالح ونبذ الصالح ، ويسعى الشاعر الى بلوغ مثل عليا ـ حتى تلك التي يستحيل بلوغها ، وتتسع الآفاق امامه . ويجد نفسه امام انطلاقة جديدة ـ وهي الانطلاقة التي طبعت بطابعها سنوات نظم الديوان . وفي تلك المرحلة بدا تأسيس المجلات والدوريات ونشرت فيها الحملات الجدلية ذات الطابع الجديد عن الفن والحضارة القديمة وعلم الصرف وعلوم الطبيعة . وهكذا نفهم لماذا يستحضر كوته في مقطوعة « قوافل » عالم شعراء المعلقات ولماذا تجتذبه وتحفزه خصال العرب ، بما في ذلك نزعتهم الى القتال ، وحتى « الخيال والفخر » . اما نزعة البدو والعرب قديما الى القتال والخصام التي تحتل مكانا كبيرا في حياتهم وتميز شعرهم كشعر حرب فقد اثرت في شعر كوته وتصدرت نتاجه الشعري الذي استوحاه من المعلقات .

وكان اهتمام كوته الشيخ بالنزعة الحربية حدثا تاريخيا رائعا شبيها بانبعاث حسه الذهني الخلاق من جديد . ولكن هذا الحس الخلاق المتجدد والذي حظي بالقسط الاكبر من اهتمام الباحثين ، لم يظهر فعلا في مسيرة حياة الشاعر الا في لحظات معينة ، مع انه كان ذا اثر بالغ في نتاجه . وعلى العكس من ذلك فان توجه كوته الى نزعة القتال قد شملت كل مراحل حياته تقريبا وطبعت بكل تأكيد ، ولعقد من الزمان ، نشاطه الخلاق ، كما هو واضح وموثق في المجلات الثلاث الوارد ذكرها ، بصورة خاصة . وهكذا تستحق نزعة القتال المتجددة عند كوته ايام شيخوخته الاهتمام الذي لقيته حين وصفها الشاعر في مقطوعة « اني لك هذا ؟ » بانها ولادة جديدة .

اما فيما يخص لحظة الحركة ، اي « السير » و « الفرار الابدي » المرتبطين ارتباطا مميزا بـ « احوال البدو » والتي استقى منها كوته ايام نظم الديوان دوافع « محفزة » لرؤياه الشعرية ، فاننا نشير الى موضع مهم جدا في رواية « سنوات تجوال فلهلم مايستر » موازٍ بفحواه لمقطوعتنا المذكورة اعلاه .

ففي تلك الرواية يلقى لناردو خطابا حول قيمة الهجرة ويبداها باشارة الى بدو الصحراء معتبرا حياة البداوة التي يحيونها نموذجا يتصدر قائمة النماذج التي يوردها . وليس من باب الصدفة ان تظهر هنا بعض المفردات المهمة جدا من مقطوعة « قوافل » . لذا يمكن اعتبار هذا

المقتطف من الرواية التي كتبت في سنة ١٨٢١ تعليقا على مقطوعتنا المذكورة :

« نود ان نوجه اهتمامنا الى المساحات الممتدة الواسعة(٧٢) لبعض البلدان والممالك والمرتبطة بعضها ارتباطا وثيقا . فهناك مساحات شاسعة من الارض يجوبها الرحل ؛ وفيها سكناهم ومراعي قطعانهم . فنحن نراهم في بطن الصحراء في المراعي الخضراء كمن يرسو في الميناء المرغوب . واصبحت هذه الحركة جزءا من حياتهم وصار التجوال عادتهم بل ديدنهم الذي لا مفر منه ؛

واخيرا فانهم لا ينظرون الى سطح العالم وكأنه خال من الحبال المنيعة ولا تخترقه الانهر(٧٣) . . . وحين يطلق لناردو في تلك الخطبة المشهورة في رواية سنوات التجوال شعار « لا تغلق عينيك امام آمال المستقبل والمزيد من الحكمة » ويطالب بأن « ندع في صدورنا مكانا لقسط معين من حرية الحركة » فان مايقوله مرتبط مباشرة بموضوع التجوال في مقطوعة « انى لك هذا ؟ » . وهذا يطابق نهج كوته الشيخ حيث اثرت المعلقات في صياغة افكاره الشعرية في مرحلة نظم الديوان(٧٤) .

مقطعات ملحقة بالديوان
واوتاد خيامنا
تنفر الظباء

هذه الابيات هي واحدة من المقطعات الملحقة بالديوان(٧٥) وهي تشابه بمضمونها مقطوعة « انى لك هذا ؟ » في كتاب الحزن ، وتتطابق القافية والوزن معها تطابقا تاما ، وهي حالة فريدة من نوعها في الديوان . وكان كونراد بورداخ اول من افترض عائدية هذه المقطعة الى المقطوعة المذكورة(٧٦) ، ومما يؤيد ذلك الافتراض هو ان هذين البيتين مستلهمان من المنبع نفسه الذي حددناه لمقطوعة « انى لك هذا ؟ » .

فغالبا ما تتحدث المعلقات عن الخيام والظباء . ولا بد ان موضعين من تلك المواضع الكثيرة بقيا في ذاكرة كوته حين كان يقرأ المعلقات ويستوحي منها خصائص « احوال البدو » اولها من قصيدة زهير ابن ابي سلمى (هارتمان ١٠١ وما يليها) :

١ ــ امن أم اوفى دمنة لم تكلم
بحوماته الدراج فالمتثلم
٢ ــ ودار لها بالرقمتين كأنها
مراجيع وشم في نواشر معصم
٣ ــ بها العين والآرام يمشين خلفة
واطلاؤها ينهضن من كل مجثم
٤ ــ وقفت بها من بعد عشرين حجة
فلأيا عرفت الدار بعد توهم
٥ ــ اثافيّ سفعاً في معرس مرجل
ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلم
١٤ــ فلما وردن الماء زرقا جمامه
وضع عصي الحاضر المتخيم

فأمامنا هنا مطلع ومعلقة يعالج بالاسلوب النموذجي المألوف موضوع «الحزن في العشق»(٧٥) . وعند وصف الموضع الذي كانت فيه مضارب الحبيبة يثير الشاعر لدى ظهور الغزلان والظباء ، حيث تستأنف حياة الصحراء من جديد بعد ان اقام فيها بعض البدو لوقت قصير ونصبوا فيها خيامهم . فحين تنصب الخيام في مكان ما في الصحراء ، تنفر قطعان الحيوانات البرية : وهذه ظاهرة ترافق دق اوتاد الخيام . ويعود هذا الموضوع ايضا في مطلع معلقة لبيد بن ربيعة (هارتمان ص ١٢٢ وما يليها) :

١ ــ عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها
٥ ــ من كل سارية وغاد مدجن
وعشية متجاوب أرزامها
٦ ــ فعلا فروع الايهقان واطفلت
بالجلهتين ظباؤها ونعامها
٧ ــ والعين ساكنة على اطلائها
عوذا تأجل بالقضاء بهامها

عريت وكان بها الجميع فأبكروا
منها وغودر نؤيها وثمامها
شاقتك ظعن الحي حين تحملوا
فتكنسوا قطنا تصر خيامها

ويضيف هارتمان هامشا لتوضيح كلمة (ضباء) الواردة في البيت ٦ (ص ١٢٤) قائلا :

« براري بلاد العرب موطن الظباء ، وتشاهد في قطعان كبيرة » . ويشير شاعر المعلقات هنا ايضا وهو يطرق موضوع « الحزن في العشق » ، الى ظهور الظباء وغيرها من حيوانات الصحراء في المكان الذي كان قوم الحبيبة ينزلون فيه ثم رحلوا دون ان يتركوا عصى الخيام ؛ لذا فلا تنفر الظباء من ذلك الموضع . وقد احتفظ كوته بهذه الظاهرة المألوفة في « أحوال البدو » : فحيث تضرب الخيام « تنفر » اوتادها حيوان الصحراء . وفي البيت ١٢ من معلقة لبيد يرد تشبيه المرأة الجميلة بالظبيه ؛

وهو تشبيه يتكرر في المعلقات وفي الادب الشرقي عامة ويقول هارتمان في تعليقه على البيت ٦ من قصيده لبيد، ص ٧١، ما يلي : « يشبه الشرقيون المراه الجميلة بالظباء اللطيفه الرشيقة » . ويفهم من ابيات لبيد بان الظباء تعود الى الظهور بعد أن ترفع الخيام ويرحل أهلها .

حكم طيعه

واخيرا فقد كان للمعلقات تاثير على صياغة بعض الامثال في الاجزاء الاولى للحكم الطيعة ، ولم يلتفت اليه الباحثون حتى الان . لقد قيل سابقا بان زمن تاليف الحكم الطيعة يعود الى فترة نظم الديوان(٧٩) وهي قريبة الصلة بالمضمون والشكل بكتب (التفكير والحزن أو سوء المزاج ، والحكم). وقد حذفت بعض المقطوعات التي كانت عائدة الى هذه الكتب من الديوان عندما شرع بطبعه ونشرت في نطاق الحكم الطيعة . وكان هذا احد الاسباب التي ساعدت الباحثين على كشف مؤثرات المصادر الشرقية والشرق بصورة عامة على كثير من الحكم الطيعة . وتجدر الاشارة هنا الى ان الدراسات الخاصة بمصادر وخلفيات هذه المقطوعات التي تدور حول الحكم ، مازالت غير متكاملة . والصعوبات التي تقف أمام تلك الدراسات شبيه بصعوبات الدراسات الخاصة حول « المباديء والتاملات»، ولازالت الصدفة تلعب الدور الاساس في اكتشاف تلك المؤثرات.ان الاجزاء الثلاثة الاولى من الحكم الطيعة التي سنتحدث عنها اولا نشرت في « الفن والعصور القديمة » (الجزء الاول : ١٨٢٠ ، الجزء الثاني الثاني : ١٨٢١ ، الجزء الثالث : ١٨٢٤) ، ثم نشرها كوته مرة اخرى في الجزء الثالث من الطبعة الكاملة سنة ١٨٢٧ .وقد اضاف اليها الشاعر قولا مأثورا من هوراس ذي خمسة اسطر تنتهي على النحو التالي :

"... Ut omnis Votiva pateat veluti descripta tabella Vita senis."

حيث يذكر فيها نبذة عن حياة الشعراء .

واولى كوته اهتماما بالغا بنهاية هذا القول المأثور بدليل انه باعد بين حروف الكلمات وطبعها مائلة . ويرى كثير من الباحثين في هذا ، وبحق ، تأكيدا على ان تناول كوته لسيرته الذاتية يلعب دورا كبيرا في شعره الخاص بالحكم(٨٠) ، ويضاف الى ذلك ان للقول المأثور الذي استشهد به كوته من هوراس علاقة خاصة بالمجموعة الشعرية التي يتصدرها . فالحكم الطيعة ، كما يلاحظ ، تتحدث أكثر من أي عمل نثري أو ديوان شعري في نتاج كوته عن « المشيب » بالذات وبمعناها المحدد ، فهي لا تقتصر على حكم الشيخوخة عامة فحسب ، اذ اننا نجدها ايضا في حكم وامثال الديوان أو في الاجزاء الاخرى من اعمال كوته المعروفة باسم « الحكم » و « الامثال » و « مباديء وتاملات » الخ . أما الطابع المميز لمجموعة « الحكم الطيعة » فهو على عكس المجاميع الاخرى انها تعالج مرحلة الشيخوخة كموضوع مفضل . فنحن نلقى مفردات تتكرر وتتحور ولمرات كثيرة : الشيخوخة(٨١) ، الشيخ (٨٢) ، الهرم(٨٣) ، الشيوخ(٨٤) ، كبير السن(٨٥) ، ايام قديمة(٨٦) ، قطرات قديمة(٨٧) ، القديم(٨٨) ، رجل عجوز(٨٩) ، الكبير(٩٠) ، التقدم في السن(٩١) ، العيش طويلا(٩٢) ، الشعب القديم(٩٣) ... الخ . ويشمل ذلك الاجزاء الاربعة الاولى من الحكم الطيعة بصورة خاصة. ويترجع الموضوع المذكور في الاجزاء اللاحقة والاجزاء التي خلفها كوته بينما يختفي كليا من بعضها . وحين اختار كوته قول هوراس فانه قام بذلك خصيصا للاجزاء الاولى من الحكم الطيعة . فهذه الاجزاء بالذات ، وليس غيرها ، هي التي تعالج موضوع المشيب بصورة خاصة .

فان تتبعنا موضوع الشيخوخة في قراءة الاجزاء الاولى من الحكم الطيعة المنشورة في سنة ١٨٢٠ اتضح لنا بأن : فكرة كوته الرئيسة اثناء نظم الحكم الطيعة هي الحديث بمقطوعات قصيرة من منظور الشيخوخة والتعبير عن مصير الانسان الذي يدركه الهرم ، اضافة الى معالجة علاقة الشيخوخة بالشباب . لقد انبعثت الحكم الطيعة الاولى بالدرجة الاولى من هذه الفكرة ، وهي «عمل» حقيقي وليست كشكولا من مباديء جمعت عشوائيا . وتنكشف بهذا خلفيات انشاء تلك الحكم . الا ان تاريخ انشائها يلفه الغموض وخاصة في بداياته .

ويظن أن كوته كان منذ ١٨١٥ منشغلا بكتابتها ، مع ان سنة الطبع للمجموعتين « الحكم » و « الاقوال المأثورة » وضعت لاحقا(٩٤) . ولم تسعفنا التواريخ المدونة القليلة في تحديد زمن انشائها بدقة . ولا توجد في يوميات كوته اية ملاحظات عن تاريخ انشاء الجزء الاول منها . بينما يتطرق الشاعر الى ذكر « المقطوعات المضافة » ولمرات عديدة ابتداءا من سنة ١٨١٦ ويعنى بها كوته « تلك المقطوعات غير المنشورة او غير

المجموعة »(٩٥) لذا فان عبارة «المقطوعات المضافة» تعني احيانا « الحكم الطبيعة » .

وكان كوته في ٢٥ كانون الاول ١٨١٦ ايضا منكبا على نظم « المقطوعات المضافة » . ويضيف الشاعر في يومياته ملاحظة اخرى : « معلقات . زهير »(٩٦)، وملاحظة اخرى في صباح يوم ٢٦ كانون الاول ١٨١٦ : « مقطوعات صغيره » . ويعلق الباحث هـ . ج . كريف(٩٧) على هذا العنوان الاخير قائلا : « العلاقة غير معروفة » . اما بالنسبة للعنوان « معلقات . زهير » فان كريف يشير الى المقطع الذي يبحث عن « العرب » في « التعليقات والابحاث » الخاصة بالديوان الغربي ــ الشرقي ، وهي اشارة مظللة حقا لانها توحي بان كوته كان انذاك قد بدا بكتابة التعليقات والابحاث ، بينما المعروف انها كتبت في تاريخ لاحق . وليس هناك اي دليل على قيام علاقة بين ذكر اسم زهير بن ابي سلمى ومقطوعات الديوان . وسنبين فيما يلي احتمال وجود علاقة مختلفة تماما للاحظات كوته المدونة في كراس يومياته ليومي ٢٥ و ٢٦ كانون الاول ١٨١٦ .

من المؤكد اولا ان كوته قرا المعلقات في مساء اول ايام عيد الميلاد لسنة ١٨١٦ ، وخاصة معلقة زهير ــ وهي المرة الوحيدة التي يذكر فيها كوته اسم احد شعراء المعلقات بالتحديد . ولا يتوفر لدينا دليل لتحديد نوع الترجمة التي قراها الشاعر، كما لا نعلم بوجود هامش استعارة من المكتبة يخص الموضوع. لكن ملاحظاتنا التالية ستبين بما لا يرقى اليه شك بان كوته قرا ايام عيد الميلاد ١٨١٦ ترجمة هارتمان . والمعروف ان معلقة زهير تحتل مكانا مرموقا بين المعلقات السبع ؛ لانها تحتوي على اكبر نسبة من ابيات الحكم (يتالف ثلث المعلقة تقريبا من الحكم) . وتعالج نسبة كبيرة من أبيات الحكم موضوع الشيخوخة ــ وهو الموضوع الذي يلعب دورا كبيرا في (الحكم الطبيعة) المبكرة لشاعرنا كوته . ونستطيع الان البرهنة على ان كوته يعتمد على زهير في مواضع كثيرة من الاجزاء الاولى للحكم الطبيعة عند معالجة الموضوع المذكور. لقد اوحى شعر الحكم الشرقي الى كوته في مرحلة نظم الديوان بكثير من المقطوعات . كما كان لمعلقة زهير تاثير محفز على كوته وخاصة في ايام عيد الميلاد لسنة ١٨١٦ بالذات ، حيث كان شاعرنا منكبا على قراءة معلقة زهير بصورة خاصة .

وقبل البدء ببحث نقاط التطابق الكثيرة نطلع على تعليق هارتمان الذي يميز به معلقة زهير (ص ١٠٠) :

« ويختتم زهير قصيدته بعدد من الامثال والحكم الذهبية التي يوجهها الى اصدقائه كنماذج من الحكمة التي كسبها من خبره سنين طويلة ومن تأمل عميق لاحداث الدنيا ومسارها . وتتميز هذه القصيدة عن المعلقات الاخرى باسلوبها الرائع وطابعها الممتاز ، كما انها غنية بالامثال والتاملات الفلسفية ذات الفكرة الجادة » .

فهنا اذا اشارة الى ان زهيرا يتحدث وقد هرم لبث حكمته : فالعظمة والرؤية تنبعان من منظور انسان خبر الحياة وبلغ ارذل العمر . وهذا هو الموقف نفسه الذي تتحدث منه (الحكم الطبيعة) بصورة عامة ــ وفي الاجزاء الاولى بصورة خاصة .

ويقول زهير في احدى « حكمه الذهبية » بان ارتكاب الخطا في المشيب اشد وقعا من ارتكابه في الشباب . وقد وجد كوته في هذه الفكرة متعة خاصة لانه استخدمها في احدى الحكم الطبيعة ، وتطرق الى موضوع اخطاء المشيب والشباب لمرتين . ضافيتين بايحاء من بيت زهير نفسه (هارتمان ١١٥) :

وان سفاه الشيخ لا حلم بعده
وان الفتى بعد السفاهة يحلم

ويقول كوته في الجزء الثاني من الحكم الطبيعة (بيت ٤٥٢ ومايليه) :

اذا اسف الفتى
فانه سيتعذب طويلا
على الشيخ ان لا يكون سفيها
لان حياته الباقية قصيرة

ينطبق المغزى هنا تماما مع مغزى بيت زهير : لايجوز للرجل الهرم ان يغدو احمقا (ويستخدم كوته كلمة « سخيف » وهي كلمة مالوفة عنده انذاك) ، لانه ليس لديه وقت كاف من بقية حياته ليعود حليما . اما فيما يخص اختيار المفردات فتجدر الاشارة الى ان كوته وزهيرا يعبران عن تناقض الشيب والشباب بمفردات متشابهة ؛ زهير : الشيخ ــ الفتى : كوته : الشيخ ــ الفتى وفي اطار الحكم الطبيعة التي تعالج « المشيب » يتحدث كوته مرارا عن تناقض المشيب ــ الشباب . الا ان كوته لايستخدم كلمة (الفتى) الا في الابيات المذكورة اعلاه ، اذ أن المصطلحين المتضادين هما

دائما كما يلي : الشيخ ـ الشباب (بيت ٥٢ ومايليه)؛ المشيب ـ الشباب (بيت ٩١ ومايليه ، ٦٢٦ ومايليه) ؛ المشيب ـ وسط العمر (بيت ٦١ ومايليه) ؛ كبيرالسن ـ الشباب (بيت ١٣١ ومايليه) ؛ ايام قديمة ـ احفاد (بيت ١١٤ ومايليه) ؛ المشيب ـ الاخرون (بيت ٥٣٧ ومايليه) ؛ شباب ـ شيوخ (بيت ٧٦٦) ؛ شيخ ـ شاب (بيت ٩٠١ ومايليه ، ١١٢٨) ؛ القديم ـ الجديد (بيت ٨٧١ ومايليه) ؛ هرم ـ طفل (بيت ٨٩٥ ومايليه) ؛ بعمر ٢٢ سنة بعمر ٧٢ سنة (بيت ٦١٤ ومايليه) وكما ذكرنا سابقا فهناك اشارتان في الحكم الطيفة الى التناقض بين الشيوخ والشباب في اطار خاص باخطاء الشيخوخة والشباب . يقول گوته في الاجزاء الاولى (بيت ٨٩ ومايليه) :

اقلع عن التباهي بالحكمة والتشنيع على الغير
فالتواضع اجدر بك
فلاتكاد تنتهي من ارتكاب اخطاء الشباب
حتى تضطر لارتكاب اخطاء المشيب

ويقول في الجزء الثالث (بيت ٦٢٦ ومايليه) :

يدهش الشباب كثيرا
حين تنمو الاخطاء الى مثالب
ويسترد قواه ويفكر بالندم !
وفي المشيب لايدهش المرء ولايندم

ومع أن المغزى محور هنا فان كلا الحكمتين قريب من حكمة زهير ومرتبط عبر عناصر الموضوع : المشيب ـ الشباب واخطاؤهما وتذكرنا الكلمات « يتباهي» و «يشنع على» في البيت الاول (بيت ٨٩) بجو المعلقات(٩٨) وكذلك نجد كلمة « الحكمة » (بيت ٨٩) في بيت زهير ولخاتمة ابيات زهير في ترجمة هارتمان طابع ايقاعي خاص :

« ... بعد السفاهة يحلم » . ولحكمة گوته ايقاع مشابه (بيت ٨٩ ومايليه ، ويبدو ان القافية : يتباهى ـ يشنع على (بيت ٨٩ ، ٩١) (bangen - prangen) صدى وذكرى لاخر كلمة في الترجمة الالمانية لبيت زهير وهي erlangen (يكسب الحلم) .

واخيرا نتطرق الى ذكر حالة رابعة في الحكم الطبعة حيث يظهر مغزى بيت زهير المذكور . وهي الابيات من الجزء الاول (بيت ٥٢ ومايليه) الشيخ دائما كالملك لير ! ـ

وان كل شيء في حياته قد انتهى
وذهب احباؤه وانفضوا من حوله
والشباب خلق للشباب
ومن الحماقة ان تطلب منه :
ان تعال وعمر معي

وتتمثل هنا ايضا المجابهة بين الشباب والمشيب ، كما في الحكم المذكورة سابقا . فان كانت حكم زهير الاخرى في المضمون بعيدة في المغزى فان هناك صدى متشابها يستحق الاهتمام. فالكلمات الاولى لترجمة هارتمان لبيت زهير هي : «وان سفاه الشيخ لا حلم بعده ..». ويقول كوته : « الشيخ دائما كالملك لير ! » والظاهر ان كوته قد اعتبر صدر بيت زهير حكمة مستقلة بذاتها ؛ ثم طورت فيما بعد . فالتوازي بين افكار الشاعرين لا يقتصر على الجرس ـ المتمثل بكلمتي (nie stets ابدا ، دائما) المتضادتين ـ بل يتعداه الى تشابه الفكرة ، ففي كلتا الحالتين موقف خطر لـ (الرجل الشيخ) . ويمكن ان تكون كلمة « سفيه » (بيت ٥٨) ـ وهي موجودة في بيت زهير ايضا ـ قد جاءت من هناك. هذا وان مقطوعة «الشيخ ..» هي من المقطوعات الاولى في (الحكم الطبعة) التي تعالج موضوع المشيب وهي اول مقطوعة تتحدث عن التناقض بين الشباب ـ المشيب .

وفي الاجزاء الاولى من (الحكم الطبعة) ، وفي اطار المقطوعات الخاصة بالمشيب ، دعوة متكررة في مواضع عديدة : على المرء ان لا يخاطر باحتقار الدنيا ، عندما يبلغ من العمر عتيا . مثلا في البيت ٢٧ ومايليه :

« قد يسألك تلاميذك
لقد عشنا طويلا راضين في هذه الدنيا
فما الذي بودك ان تعلمنا ؟
فالمهارة ليست في التعمير
المهارة هي في تحمل التعمير .

والبيت ٧٧ وما يليه :

من الرجال الاتقياء والحكماء
تعلمت الكثير بسرور
واشترطت ان يكون ذلك بسرعة
فالكلام الطويل لا يناسبني
فما الذي يبغيه المرء في النهاية ؟
ان يعرف الدنيا وان لا يحتقرها .

وبعدها مباشرة البيت ٨٣ وما يليه :

فان سمحت الى ذلك مثلي طويلا ؛
حاول مثلي ان تحب الحياة .

ويعود كوته في الجزء الثالث من (الحكم الطيعة) الى الموضوع نفسه . ويقول بعد الابيات الواردة اعلاه والتي تتحدث عن الشباب والمشيب (البيت ٦٣٦ وما بعده) ، في البيت ٦٤٠ ومايليه :

« كيف يمكن ان اعيش طويلا بسعادة ؟ »
عليك ان تصبو الى الافضل دائما ...

لم يستطع احد من الباحثين حتى الآن العثور على مصدر لهذه المقطوعات او لكل المقطوعات التي تطرقنا اليها ، لكن من المحتمل أن قراءة كوته لمعلقة زهير هي التي اوحت بها اليه . فنحن نقرأ هنا في (مقدمة هارتمان ص ١١٢ وما يليها) :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا لا ابالك يسأم
رايت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

ولعل تلك (الحكم الطيعة) قد انشئت باعتبارها نسخة منقولة اي كقصيدة تراجعية : وهي شكل مألوف من اشكال شعر المناسبات عند كوته. ويزداد هذا الانطباع قوة حين نقلب ثلاث صفحات اخرى من ترجمة هارتمان للمعلقات ، حيث نجد نصا يرد فيه ان لبيد بن ربيعة قد مات وهو في السابعة والخمسين بعد المئة من عمره ؛ ثم تلي ذلك النص ابيات للشاعر لبيد (ص ١١٧) يشكو من « امتداد حياته وطولها » . ويصفه هارتمان بانه كان شاعرا متمسكا بالدين جدا (قارن الحكم الطيعة ، بيت ٧٧ اعلاه) . وتبدا شكوى لبيد كما يلي :

« ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس : كيف لبيد ؟ »

وانطلاقا من الحقيقة القائلة بان لقصيدة زهير تاثيرات ايحائية على (الحكم الطيعة) يمكننا القول بان الراي المتطرف للبيد عن « السأم » من الحياة قد دفع كوته الى راي معاكس . لقد كانت نظرة كوته مختلفة تماما ، فهو لم يكن يؤيد بكل جوارحه شعار فيليب نيري ؛ بالرغم من الاحترام الذي يكنه له ، فقد اعتبره علامة « النزعة السوداوية »(١٠٠) وعلى اي حال فان من الضروري البحث عن تفسير لعودة كوته ، ولمرات متكررة ؛ الى التحذير في الحكم الطيعة : اياكم أن تحتقروا الحياة في المشيب . والتفسير المطلوب موجود في تاثر كوته بشعراء المعلقات .

واخيرا فان بين حكم زهير التي قالها في المشيب حكمة بليغة يمكن اعتبارها بالتحديد مصدرا لاحدى الحكم الطيعة :

واعلم ما في اليوم والامس قبله
ولكنني عن علم ما في غد عم(١٠١)

وتعتمد الحكمة ماقبل الاخيرة في مجموعة كوته ، الجزء الرابع ؛ في المضمون والنص على الفكرة نفسها ، لكن الباحثين لم يعثروا على مصدر لها حتى الآن .

يقول فيها كوته (بيت ١١٧٣ وما يليه) :

واسوا ما يمكن ان يصيبنا
نتعلمه من اليوم
فمن راى هذا اليوم في الامس
فهو لا يقترب من اليوم
ومن يرى في هذا اليوم الغد
فقد دبت فيه الحياة ، ولن يقلق له بال

يطرح الشاعر كوته هنا ، كزهير تماما ، موضوع الثالوث للمناقشة : الامس ـ اليوم ـ الغد ؛ ويرينا التطابق المذهل بين نص كوته ونص زهير وكلمات كوته « نتعلم من اليوم » (زهير : واعلم ما في اليوم) ، بأن شاعر كوته قد صاغ مطلع مقطوعته على منوال حكمة زهير . والشاعران يتعلمان من الامس واليوم ، وهما ينهيان حكمتيهما بسؤال يتعلق بما هو منتظر في الغد ، وفي صيغة السؤال ايضا توافق لفظي واضح عند الشاعرين . والجلي ان لابيات كوته طابع الرد ويمثل عدد منها تراجعا عن احدى حكم زهير ، كما راينا ذلك بوضوح في الابيات التي تحذرنا من احتقار الدنيا في المشيب . فقد حور الراي السلبي عند الشاعر الشرقي الى قول بارع ايجابي عند كوته .

واضافة الى ذلك فان في المعلقات موضوعين آخرين يتحدث فيهما الشعراء مثل زهير عن علاقة اليوم بالغد . ولعل ذلك دفع كوته الى الاهتمام بهذا الموضوع ، الى جانب اسباب اخرى . ينشد طرفه في آخر معلقته :

ستبدى لك الايام ماكنت جاهلا
ويأتيك بالاخبار من لم تزود(١٠٢)

وينشد عمرو بن كلثوم :

وان غـدا وان اليـــوم رهـــن
وبعـد غـد بما لا تعلمينـا(١٠٢)

وتزداد اهمية المصدر الذي كشفناه لمقطوعة « واسوا ما يمكن ان يصيبنا » حين نعـرف بأن الحكمة التي تلي هذه المقطوعة مباشرة، اي المقطوعة الاخيرة في الجزء الرابع من الحكم الطيعة ، تعالـج الموضوع نفسه لمرات عديدة ولكن بايجـاز بليـغ . ولنقرا هذا المقطع الرباعي المشـهور لكوته (بيـت ١١٧٩ وما يليه) :

ان كان الامس واضحا ومعروفا لديك
فانت اليوم قوي وطليق ؛
ولك ان تأمل بغد افضل
لا يقـل سـعادة .

وقد أهدى كوته نسخا من هـذه الابيات في مناسبات عديدة منذ ١٨٢٥ ، وطبع نسخا منها في حزيران ١٨٣٠ . ويعود التاريخ بكل تاكيد الى زمن اعداد الاجزاء ٤ـ٦ من الحكم الطيعة لغرض نشرها لاول مرة في (المجلـد الرابـع للطبعـة الاولـى) ؛ فضمت بذلك الى الحكمة السابقة (البيت ١١٧٣ وما يليه)(١٠٤) التي كتبت بوحي من معلقة زهير . اما المقطوعة الاخيرة فانها مستوحاة مـن مطالعـة كوته في كراس يومياته والتي كانت نقطة انطلاقنا : « بارالبومما (مقطوعات ملحقـة) ... معلقات . زهير » (٢٥ كانـون الاول ١٨١٦) و « مقطوعات صغيرة » (٢٦ كانون الاول ١٩١٦) ؛ فاننا نستطيع الآن ان نفهم مضمونها بصورة صحيحة . ولنحاول ايضا تقويم اهميتهـا .

لقد التقى كوته في ايام عيد الميلاد لسنة ١٨١٦ مع الشاعر زهير وكان لهذا اللقاء تاثير مثمر علـى شعر الحكم عند الشاعر الالماني ؛ فقـد استوحت مقطوعات « الحكم الطيعـة » الخاصـة بالمشـيب دوافع مهمة . وهنا يطرح السؤال التالي نفسـه : هل كانت مطالعة كوته لمعلقة زهير هي المحفز الذي دفعه الى موضوع المشيب ، ام ان نية كوته المسبقة على تصوير ذلك الموضوع هي الدافع وراء مطالعة المعلقة المذكورة ؟ ونرى ان الاحتمـال الثاني هـو الارجح لانه يتفق مع احداث حياة كوته الحقيقيـة آنـذاك .

لقد توالت الاحداث الكثيرة في حيـاة كوتـه البالغ آنذاك ٦٧ سنة من العمر والتي سـاهمت في احساسه بأجواء الشيخوخة . فكانت وفاة زوجته كريستيانة (٦ حزيران ١٨١٦) بداية مرحلة قاسية في حياته، كما كانت نذير أضراب وحدة الشيخوخة، وتلا ذلك مباشرة الغاء كوته للقاء مرتقب مع ماريانه فون فيلمر بسبب حادث عرضي بـدا له كنذير شؤم وتحذير ، وهو انقلاب عربتـه والغاء رحلـة الراين المزمعه في ٢٠ تموز ١٨١٦ . لقد حاول كوته، كعادته في مثل تلك المواقف ، ان يتغلب على اجواء الكآبة بالانصراف الى كتابة اعمال كبيرة ، لكن تلك المحاولات كانت تحمل طابع الوصايا : فانصرف الى نشر اعماله المبكرة الخاصه بعلوم الصرف . ولاول مره قضى الشاعر عيد الميلاد لسنة ١٨١٦ بـدون كريستيانة ــ وهذه هي الفترة التي تهـم دراستنا بصـورة خاصـة . وكانـت خطوبـة ولده وشيكة واختلطت بذكرى موت كريستيانه . واعلنـت الخطوبـة في اليـوم الاول من السـنة الجديدة . ويذكر كوته تلـك المناسبة في رسـائله برضـى يشـوبه شـعور خفـي بالاستسـلام للمقادير(١٠٥) . وعلى أي حال فان هذا الحدث كان بدوره سببا كافيا لبدء مرحلـة جديـدة في حيـاة شاعرنا . ولو اضـفنا الى كـل ذلـك شـكوى كوته في نهاية تلك السنة من « آلام التهاب نزلي » اصيب به بسـبب الطقس وانـه « يعمـل وهـو محموم »(١٠٦) ؛ فاننا نفهم لمـاذا انشـغل في ايـام الاعياد بموضوع المشيب . لقد دفعه وضعه العـام ومزاجه الحزين الى ذلك وحين ترد كلمـة حفيـد في الحكم الطيعة الخاصة بالمشيب فان ذلك مرتبطا دون شك بمزاجه آنذاك وخاصة بحـدث خطوبـة ابنه . كما ان الخطوبة اثـارت عنده التفكـير بال « الحفيد »(١٠٧) المنتظر . ونود الاشـارة في هـذا الاطار ايضا الى ورود فكرة « الاحفاد » في مقطوعات شعرية أخرى كـان كوته ينظمهـا في تلـك الايـام بالذات، وهي تلعب دورا رئيسيا فيها . ففي نهاية كانون الاول ١٨١٦ ، اي في الوقـت الذي كانـت تنظم فيه « المقطوعات الصغيرة » ــ وقـد كتبهـا متأثرا بزهـير ــ اكمـل كوته المقطوعـة الغنائيـة الناقصة التي تعالـج موضـوع الامـير المضـطهد والعائـد : لقـد اكمل آنـذاك المقطعين الاخيريـن منها(١٠٨) . من السـهولة تمييز مقاطع هذه المقطوعة الغنائية التي كان كوته قد بداهـا في تشرين الاول ١٨١٣ واضاف اليها المقاطـع النهائيـة ومعرفـة الظروف التي دفعته الى اكمالها : فالمقطع الخامس والسادس يرويان قصـة خطوبة ابنـة الامير مـع وصف مشاعر الاب وكيف يتأثر في ذلـك الموقـف ويفكر بقدوم « الحفيد » (بيت ٤٨ ومابليه) :

لا تريد الافتراق من والدها
والشيخ يغدو هنا وهناك ؛

ويحمل مغتبطا الامه .
هذا ابنتي اتصور ابنتي لسنين طوية
والاحفاد آتون من بعيد
اني اباركهم في النهار واباركهم في الليل —
ويسر الاطفال ان يسمعوا ذلك .

فالحديث هنا اذ عن « شيخ » وعن « أحفاد » يحظون باهتمامه — فالاحفاد هم الاطفال الذين يتردد اسمهم في مقطع الاعادة في المقطوعة الغنائية الخاصة بالامير ، فهم اذا اشخاص ذوو مكانة مرموقة في الاغنية . وترد كلمة « الشيخ » خمس مرات في المقطوعة الغنائية الناقصة المؤرخة ١٨١٣ ، ومرة في المقاطع الاخيرة المكتوبة في كانون الاول ١٨١٦(١٠٩) ، وتلعب هذه الكلمة دورا مهما في مقطوعات الحكم الخاصة بالمشيب . ويكسب هذا الامير الشيخ في المقطوعة الغنائية صفات الملك نير من خلال الابيات الاضافية التي يضمها كوته اليها في سنة ١٨١٦ :

« الشحاذ ... شاب وسلب تاجه » (بيت ٨٥) ؛ وعلينا ان نتذكر الحكمة التي بدات بكلمات مطابقة لبيت زهير : « الشيخ دائما كالملك نير ! » .

وهكذا قدمنا الدليل على ان كوته في الايام التي كان يطالع فيها « معلقات . زهير » ويكتب على نظم « مقطوعات صغيرة » ، كان يمر بتجربة شعرية هاجت لديه معها افكار المشيب والشباب ، والحفيد والملك نير ، وباختصار كل مرحلة الشيخوخة ، دفعته الى الخلق . فالثابت هنا اذا هو ان « المقطوعات الصغيرة » هي الحكم الخاصة بالمشيب والمتاثرة بقصيدة زهير . وعلينا ان نوضح بان مطالعة قصيدة زهير لم تكن العامل المؤثر الاول بل ان السبب الذي دفع كوته الى دراسة زهير هو اهتمامه بموضوع المشيب الذي اخذ الصدارة في نهاية كانون الاول ١٨١٦ بين اهتمامات الشاعر . فيستعيد كوته الآن ذكرى مطالعات المعلقات من سنة ١٨١٥ وخاصة حكم زهير لان موضوعها اثار اهتمامه من جديد . ونشير الى ظاهرة خاصة بين كوته ومصادر شعره وهي : حين ينوي كوته على معالجة موضوع خاص او ظاهرة اجتماعية ، ينصرف الى مطالعة المصادر المهمة ذات العلاقة . ونستدل من ذلك ان قصيدة زهير كانت ذات قيمة كبيرة عند كوته ، حيث انه استوحى منها افكارا مناسبة لاسلوب تفكيره او انه اخذ من بعض افكارها موقفا معاكسا باسلوب جدلي خلاق .

لقد ذكرنا سابقا بأن الحكم الطيعة تنتمي الى اشعار الحزن عند كوته الشيخ ، وفي طليعتها مقطوعة « اني لك هذا ؟ » (قوافل) ، التي يبدا بها كتاب الحزن في الديوان . وحين تتحدث هذه المقطوعة عن الولادة الجديدة للشاعر فان ذلك يعني ، كما راينا البعاث نشاط كوته الجدلي اثناء نظم الديوان . لكن مقطوعة « قوافل » بالذات ترينا بوضوح بان جدليه كوته الشيخ لم تكن نتيجة لمراره المشيب ، كما قد يتصور المرء من قراءة بعض المقطوعات المنفرده ، بل انها تنبىء عن الحيويه المتدفقه لشاعر الشيخ ، وعن ارادته القوية بان لا يبقى خاملا والرغبه الشديده في نشر حكمته التي اكتسبها بعناء بالغ ليفيد منها الاخرون . وقد اتخذ كوته الاحتياط اللازم لكي لا يساء فهم الحكم الطيعه عند نشرها ، لان عنوانها كان يشبه عنوان الحكم التي شاعت في عصر الشاعر شيلر ، وهي تتحدث عن مرارة الشيخوخه وهمومها . فكانت مهمه الحكم الخاصه بالمشيب هي دحض اي سوء فهم لها في ذلك الاتجاه فهي تطبع بذلك ، وخاصة الجزء الاول من المقطوعات ، بطابعها المرضي . ولانها تؤكد على بعض خواص المشيب مثل الحلم والقدرة على تحمل مشاق الحياه برحابة صدر ، وتفصح عن نغمة ساخرة . وهكذا تضيف هذه المقطوعات ، وخاصة في بدايه الحكم ، ابتسامة الى مجموع المقطوعات وتخفف من نغمتها الصارمة . لكن هذه المقطوعات في الوقت نفسه تفصح بوضوح بان الجدل حين يرد فيها لا يصدر عن مرارة المشيب الشاملة واستهانته بالدنيا وباهلها . (لا ترد عند كوته ابدا أقوال في الاستهانة بالناس شبيهة باقوال شكسبير في اعماله المتاخرة مثلا) . ولا توجد في اعماله الا حالات منفردة في مقطوعاته ، تفصح عن النقد والسخرية ، لكن خلف كل نقد من ذلك النوع تكمن ارادة النضال في سبيل تلك المبادىء والمعايير السائدة ، ويحدث كل هذا لغرض اساسي واحد هو ضرورة تعليم الآخرين فان لم يكن هؤلاء من المعاصرين فليكونوا من « الاحفاد » ، فقد بدا كوته يفكر بهم بالدرجة الاولى . وهكذا تتحدث احدى مقطوعات الحكم الطيعة وهي تحمل سمات واضحة من مطلع مقطوعة « اني لك هذا ؟ » (بيت ٢٩ وما يليه) :

« ما هو غرضك اذا
من اشعال النار من جديد ؟ »
لاولئك ان يقرأوا هذا
اولئك الذين لم يتسن لهم سماعي .

هذا تفكير مشابه وموقف مطابق لما وصل

اليه كوته في مقطوعة « انى لك هذا ؟ » حين تساءل هناك : « وكيف استخلصت / من اسمال الحياة هذه الدبالة / التي تيسر لك من جديد / ان توقد آخر شعلة / في نيرانك ؟ » . ثم تلى هناك الاشارة الى ان المسالة ليست مسالة « شعلة مبتذلة » ، بل هي « ولادة جديدة » شاملة . فرؤية كوته الشيخ هنا بعيدة كل البعد عن انانية الشيخوخة ومرارتها . وهو يختار الطريق الاصعب ليسهل للآخرين الانتفاع من خبراته(١١٠) . ويعلن الشاعر هذا الراي كمنهج واضح في الحكمة الثانية من الجزء الاول (بيت ٧ وما يليه) :

انى لا اكتب لارضيكم
عليكم ان تتعلموا شيئا !

لذا لا يحق لنا ان نعتبر شاعر الحكم الطبيعة والشتائم وكانت كثير من المقالات الجدلية في كراريس الفن وعلوم الطبيعة ؛ شيخا مهموما فحسب . فالاولى بنا ان لا نخفي دهشتنا بعزيمة الشباب المتجددة التي التهبت نيرانها في العقود الاخيرة في حياة كوته وميزته كشاعر حق . وهنا تكمن اخيرا « الولادة الجديدة » التي شار اليها كوته بكل فخر . فهو بصفته كشيخ يتهكم على نفسه بفكاهة بريئة في الحكم الخاصة بالمشيب . ولنقارن ذلك بالحكمة الاولى من الجزء الرابع (بيت ٨١٠ وما يليه) :

دع الحكم الطبيعة تنصفنا دائما
فالشاعر لا ينحني في سيره ابدا
انكم تتركون فرتر المجنون يصول ويجول
فتعلموا الآن كيف ان المشيب مجنون .

لقد طرح كوته كثيرا من تلك الافكار الجوهرية في الحكم الخاصة بالمشيب خلال ايام عيد الميلاد لسنة ١٨١٦ ؛ عندما كان منهمكا بقراءة معلقة زهير ونظم « المقطوعات الصغيرة » . ولا يعرف ان كانت تلك المقطوعات مخصصة انذاك للديوان او لمجاميع الحكم اللاحقة . لكن الذي يهمنا هو انها تجسد لنا مدخلا الى فترة مهمة لانشاء مجاميع الحكم وتبين لنا التاثير المثمر للمعلقات ودورها الكبير في ذلك الاطار .

تعليقات وابحاث

تعين على فهم « الديوان الشرقي »

« وعند العرب ... نجد كنوزا رائعة في المعلقات »(١١١) ـ بهذه الكلمات ـ يبدأ كوته في التعليقات والابحاث الخاصة بالديوان حديثه في الجزء الخاص المعنون « العرب » والذي يتحدث فيه عن المعلقات بالتفصيل . ولقد اوردنا نص الجزء الاول من هذا الحديث في مطلع بحثنا(١١٢) . فلو القينا نظرة اخرى على ذلك النص لوجدنا انه اكثر وضوحا الآن بالنسبة لنا : لقد كتب كوته هذا الحديث بعد التاثيرات التي تلقاها وحفزت انتاجه الشعري في فترة قصيرة نسبيا .

وان القينا نظرة على الجزء الثاني من ذلك الحديث لاتضحت خصوصيته بسهولة. فان مايقال عن كل شاعر من شعراء المعلقات يبدو لنا مالوفا لاننا نعرف ما يعطيه كوته لكل تفصيل من تلك التفاصيل من اهمية . فجوهر هذا الجزء الثاني ، وهو اوسع من الجزء الاول ، عبارة عن نص مقتبس من كتاب د. جونز ؛ وهو باللغة اللاتينية :

Poeseos Asiaticae Commentariarum libri sex. (١١٣) .

ففي الفترة التي كتب اثناءها فصل « العرب » في التعليقات والابحاث (٢٤ كانون الاول ١٨١٨ـ٧ كانون الثاني) ؛ يرد ذكر كتاب جونز مرتين في يوميات كوته ؛ مرة في ٢٤ كانون الاول ١٨١٨ ؛ ومرة في ٤ كانون الثاني ١٨١٩ . والواضح ان كتابة البحث المذكور قد بدات ؛ كما يدل التاريخ الاول ، مع بدء مطالعة كوته للكتاب جونز . فقد وجد شاعرنا في هذا الكتاب المالوف لديه ضالته المنشودة واطلع فيه على مميزات شعراء المعلقات ، ووجد انها كانت متفقة مع آرائه الخاصة، فترجمها لقرائه من اللغة اللاتينية . ويلي هذا الجزء الثاني من الحديث المتعلق بالمعلقات الجزء الاول الذي اوردناه في بداية بحثنا هذا :

« وقيمة هذه القصائد الممتازة ، وعدتها سبع ، تزداد بما فيها من تنوع رفيع سام . ولا نستطيع ان نبعثها على نحو اوجز واقوم مما قاله جونز الصائب الحكم حين قال في وصفها(١١٤) : معلقة امرىء القيس رقيقة، بهيجة، لماعة، انيقة، متنوعة ، سارة . واما معلقة طرفة فجريئة حية ، وثابة ؛ ومع ذلك يشيع فيها نوع من البهجة . وقصيدة زهير قاسية ، جادة ، عفيفة ، حافلة بالحكم والآداب والجمل الجليلة . وقصيدة لبيد خفيفة ، غرامية ، انيقة ، رقيقة ، وتذكرنا بالرعوية الثانية لفرجيل : لانه يشكو من كبرياء الحبيبة ، ويتخذ من ذلك فرصة لتعداد مناقبه والتفاخر بقبيلته .. وقصيدة عنترة تبدو متكبرة ، مهددة ،

حافلة بالتعبير ، رائعة ، لكنها لا تخلو من جمال في اوصافها وصورها . وعمرو بن كلثوم عنيف ، رام ، ماجد ، والحارث بن حلزة ، بالعكس ، ملىء بالحكمة ، والفطنة والكرامة ، وهاتان القصيدتان الاخيرتان تبدوان بمثابة خطب في المنازعات الشعرية ـ السياسية ، امام جمهور من العرب ، لتسكين الاحقاد المدمرة بين قبيلتين ،

ولما كنا بهذه العبارات قد اثرنا لدى القراء الرغبة في قراءة او اعادة قراءة هذه القصائد . فاننا نورد قصيدة اخرى ، معاصرة لعهد الرسالة وتعكس روح هذا العصر .. » .

وتلي ذلك قصيدة للشاعر تأبط شرا (ان بالشعب الذي دون سلع) ، وينتهي الفصل الخاص بـ (العرب) بالتعبير عن التقدير والاعجاب بالشاعر تأبط شرا . والذي يجلب انتباهنا هنا هو ان كوته يصرف النظر عن كل تلك الاشياء التي يعرفها في الادب العربي ، وهي لم تكن بالقليلة : دواوين عديدة ، مجاميع الحكم ، الف ليلة وليلة ، وهناك اسماء شعراء عرب آخرين مدونة في مسودات الدراسات التي اجراها كوته لغرض نظم الديوان(١١٥) ، بينهم الشاعر المتنبي المذكور عرضا في الفصل الخاص بالرسول [صلى الله عليه وسلم] في « التعليقات والابحاث » ويكمن معنى خاص خلف تصرف كوته حين يركز اهتمامه في الفصل الخاص بـ « العرب » على المعلقات التي يعود تاريخها الى ماقبل الاسلام ، ثم ينتقل فجاة الى تأبط شرا ؛ وهو ايضا من شعراء الجاهلية(١١٦) . كان كوته قد وصل بدراساته الى قناعة تامة بأن ظهور محمد [صلى الله عليه وسلم] قد اثر على مسار الشعر العربي . ونستدل على ذلك من الجزء الاول لحديثه عن المعلقات حيث يقول : « ... ان هذه القصائد تزودنا بفكرة وافية عن علو الثقافة التي تميزت بها قبيلة قريش ، التي منها محمد [صلى الله عليه وسلم] ، ولكنه اضفى عليها غلالة جادة من الدين ، وعرف كيف ينتزع منها كل مطمع في تقدم مادي خالص(١١٧) . وفي الفصل الخاص بـ « محمد » [صلى الله عليه وسلم] في «التعليقات والابحاث» يتحدث كوته عن كراهية محمد [صلى الله عليه وسلم] للشعر وتأثير ذلك على الشعر العربي مفصلا . وهو يشير الى تأثير الرسول [صلى الله عليه وسلم] ، على النقيض من « الشاعر » ، والى « الهدف الرئيس للقرآن » ذي الطبيعة الدينية ـ العقائدية والتي جعلت « المسلم يسمى الفترة السابقة لعصر محمد [صلى الله عليه وسلم] بفترة الجاهلية(١١٨) لكن كوته يطرح رايا مخالفا لرايه السابق اعلاه متحدثا عن « بعض العقول الحسنة » ومحاولا توجيه الانتباه الى ان العصر الذهبي للشعر العربي كان قبل بدء الاسلام . ويتجلى تقويم كوته لشعر الجاهلية في ذلك الفصل الخاص بـ « العرب » بنغمة تثير « الرغبة لدى الناس في قراءة او اعادة قراءة هذه القصائد » . وهكذا عنون كوته ذلك الفصل الملحق بالديوان واطلق عليه اسم « تعليقات وابحاث ، تعين على فهم الديوان الشرقي »(١١٩) .

الهوامش التابعة لكتاب كوته والمعلقات

* مقدمة المترجم

تخصصت الاستاذة الدكتورة كترينا مومسن في دراسة المؤثرات التي تركها الادب العربي في اعمال الشاعر الالماني الكبير يوهان فولفجانج فون جوته عبر حياته الطويلة وبكل مراحلها حتى وفاته في سنة ١٨٣٢ ، بعد بلوغه الثالثة والثمانين .

والاستاذة كترينا مومسن تلقى محاضرات في الادب الالماني في الجامعة الحرة ببرلين ، وهي عضو جمعية جوته في مدينة شتوتجارت .

من اهم بحوثها المنشورة :

جوته والمعلقات

جوته والف ليلة وليلة

كما انها نشطت خلال العقدين الماضيين في القاء المحاضرات خارج المانيا تخص مؤثرات الادب العربي والفكر الاسلامي على الشاعر جوته . وكان عنوان احدى محاضراتها التي القتها في برلين وشتوتجارت والقاهرة والاسكندرية : « جوته والاسلام » .

ويسرني أن اقدم ترجمة « جوته والمعلقات » عن الالمانية للمختصين بالادب العربي وللقراء المهتمين بشؤون الادب المقارن عامة مساهمة متواضعة تهدف الى بيان مكانة ادبنا العربي في اطار الآداب العالمية .

الدكتور علي يحيى منصور

اما بشان المعلقات وما قيل من أمر تعليقها فالمسالة لم تعد حقيقة قائمة بعد ان اصبح الموضوع اقرب الى حديث الاسطورة لاسباب يدركها المتخصصون في تاريخ الادب القديم (المراجع) .

(١) تتبع كوته في شكل كتابة الكلمة (Moallakat) اما الشكل المتداول عند المختصين بالادب فهو Mu'allaqāt .

(٢) ان الادلة التالية التي نستقيها من اعمال الشاعر وبومياته ورسائله ترد تبعا لمصدرها من طبعة فايمار (WA) ان لم يرد ما يخالف ذلك . كما نستشهد باستعارات كوته من مكتبة فايمار تبعا لكتاب اليزا فون كويدل و فرنر دبتين : كوته كمستخدم لمكتبة فايمار ١٩٢١

(كويدل ـ ديتين) . واستخدمنا لتحرى الكتب التي كانت بحوزة گوته كتاب هانز روبرت : مكتبة گوته . فاتحة الكتب . فايمار ١٩٥٨ (روبرت) .

(٣) تاريخ الادب العربي . كارل بروكلمان . ط ٢ ، ج ١ ليدن ١٩٤٣ . ص ١١ وما يليها ، قارن ايضا الجزء الملحق . ليدن ١٩٣٧ . ص ٢٤ وما يليها .

(٤) في الاصل بحروف مائلة . وان لم يرد ما يخالف ذلك فان المؤلفة هي صاحبة الفكرة في ايراد النصوص بالحروف المائلة (المترجم) .

(٥) ولم يعد هذا التفسير مقبولا اليوم ، قارن الصفحة السابقة .

(٦) ويستشهد گوته بفقرة طويلة من كتاب السير وليم جونز ليستعين بها على التوسع في شرح مميزات شعراء المعلقات . واسم الكتاب هو :
Sir William Jones : Poeseos Asiatica commetariorum libri sex ...
وسنورد نص الفقرة في الهامش الرقم ١١٤ .

(٧) رسالة الى تسلتر في ١١ آذار ١٨١٦ : « ومن الغريب جدا ان للقصائد الشرقية منذ اقدم العصور ، اي قبل محمد [صلى الله عليه وسلم] ، تكهة محببة » (طبعة فايمار ٢٦ ، ٤١٦) .

(٨) قارن الصفحة الاولى من هذا الكتاب .

(٩) المعلقات او القصائد العربية السبع التي كانت معلقة في الكعبة بمكة . مع ترجمة وشروح . وليم جونز . لندن ١٧٨٣ ، گويدل ـ ديتين ١٩٦٧ . قارن ايضا الهامش رقم ٤ .

(١٠) اي گوته وهردر . وقد سبق الحديث عنهما .

(١١) طبعة فايمار المجلد ٦ ، ٦ ، ٢١٢ .

(١٢) نص المصدر بالترجمة الانكليزية ، المصدر نفسه ، ص ٤ وما يليها .

(١٣) الديوان الغربي ـ الشرقي ، طبعة الاكاديمية مجلد ٣ ، بارالبيومنا (مقطوعات مضافة لاحقا) . برلين ١٩٥٢ . ص ٧٦ ومايليها ، بارالبيومنا ١٠٠ ، طبعة فايمار ، المجلد ١ ، ١٦ ، ٤٦١ ومايليها ، بارالبيومنا ١ .

(١٤) الناء دراسة الادب الشرقي ، لاغراض نظم الديوان .

(١٥) طبعة فايمار ، المجلد ١ ، ٣٦ ، ٩١ .

(١٦) ١) [كعب بن زهير ، قصيدة في مدح الرسول [صلى الله عليه وسلم] . معلقة امرىء القيس ، نشر جيرادوس يوهانس ليته ، ١٧٤٨ (دار گويدل دبتين ١٩٦٨) .

٢) الثريات الساطعة في سماء الشعر العربي ، او القصائد العربية السبع المعلقة على استار الكعبة في مكة . ترجمها وعلق عليها وقدم لها انتون تسودور هارتمان ، مونستر ١٨٠٢ (دار گويدل ـ دبتين ١٩٦٩) .

٣) انظر كذلك هامش ٩ .

(١٧) قارن هامش ٩ .

(١٨) قارن يوميات گوته ، ٢٨ شباط ١٨١٥ (طبعة فايمار ، المجلد ٣ ، ٥ ، ١٥١) :
« مساءا عند سير نيسبها . المعلقات . » وتتحدث شارلوته فون شيللر عن تلك القراءة في رسالة الى كارل فون كنيبل (٤ آذار ١٨١٥) : « لقد استمتعنا هذا الاسبوع مرة اخرى بالاستماع الى قصائد عربية رائعة . لقد جمع گوته كل شيء من المكتبة ومن مجموعته الخاصة وبدا يقرا لنا منها القصائد حسب ترتيب زمن نظمها ، مرة من « ينابيع الشرق » ومرة من كتب اخرى من ترجمات انكليزية . » (رسائل من زوجة شيللر الى صديق حميم . لايبزك ١٨٥٦) . ص ١٨٤ .

(١٩) طبعة الاكاديمية ، مجلد ٣ ، ص ٨٧ ، بارالبيومنا ، ١٠٤ طبعة فايمار مجلد ٢ ، ٥ ، ٢٦٧ ، طبعة فايمار ، مجلد ١ ، ٧ ، ٢٩٠ .

(٢٠) الديوان الغربي ـ الشرقي ، طبعة فايمار ، المجلد ١ ، ٦ ، ٢٩٠ ، طبعة الاكاديمية ، المجلد ٣ ، ص ٣٢ ، بارالبيومنا ، ٣٩ .

(٢١) يرد الموضوع في مقطوعات « ان اتالف نظرتك » و « صورة سامية » و « خاتمة » .

(٢٢) قارن الهامش ١٦ : هارتمان : ترجمة المعلقات .

(٢٣) هارتمان : ص ١١ وما يليها .

(٢٤) قارن حديث گوته عن المعلقات في مطلع هذا الكتاب .

(٢٥) نص ترجمة گوته المؤرخة ١٧٨٣ للبيت الاول على مايلي : فقا نبك هنا عند موضع الذكريات ... » وقارن بالهامش ١٢ .

(٢٦) هارتمان : ص ٤٥ ومايليها .

(٢٧) هارتمان : ص ٦٧ ومايليها .

(٢٨)

(٢٩) قارن هارتمان ص ٧٥ ، ٨٦ ، ١٢٨ .

(٣٠) هارتمان ص ٢٠ ومايليها ، ٣٠ . ويذكر هكتور بالطريقة نفسها بين حين وآخر : « ما الذي زاده صلابة امام دموع وتضرع احبته ؟ » (ص ٢١) .

(٣١) قارن ي . تروئس : طبعة هامبورغ ، مجلد ٢ ، ص ٥٥٢ ، التعليق الخاص بمقطوعة والحياة الكلية ، وترد الكلمة بالاضافة الى قطعتي الديوان المذكورتين مرة اخرى : في (فاوست) ٢ ، الفصل ٥ ، بيت ٨٢٦٦ وفي الرسالة الموجهة الى نيبس فون ايزنبك ، المؤرخة ١٨ حزيران ١٩١٦ : « ... حين نتمعن مليا نرى ان غبار الصيف الذي ينزله مطر العاصفة من الفضاء ينتعش وينعش على السواء ، كاريج مخضوضر بقر العين » . (طبعة فايمار ٦ ، ٢٧ ، ٦١ ، ٣٨٢) . اما الراي الذي يطرحه المعلقون بان كلمة « بخضوضر » تعني عبير الخضرة النباتية (العشب الاخضر .. الخ) فانه لا يلقى تاييدا عند هـ . دونتسر لوحده ، فهو يقول معلقا على البيت ٥ من مقطوعة « الحياة الكلية » (وتنبت الخضرة والنضرة في معاني الارض الخضرة) : « اخضوضر تعني في الوقت نفسه صيغة تفضيل لتوضيح كلمة اخضر . لذا نجد ان كلمة اخضوضر عند دونتسر هي صيغة تصغير لكلمة اخضر (مثل ابتسم ، تهكم ، توعك ، شاخ ، غمز بعينه ، عشق) . وهذا التفسير النحوي اكثر اقناعا من حشر عنصر الرائحة في فعل مشتق من جذر خاص بالالوان . كما ان هذا التفسير يوضح لنا لماذا يضيف گوته الحديث في ثلاثة من اربعة مواضع عن العطر ، عبير الخضرة .

(٣٢) ي . بويتلر : گوته ، الديوان الغربي ـ الشرقي . بريمن ١٩٥٦ ، ص ٣٧٥ .

(٣٣) ي . ترونتس : المصدر المذكور سابقا .
(٣٤) وحين يفسر كونراد بورداخ (الطبعة التذكارية ، جـ ٥ ، ص ٤٢٦ :
« ويتدفق مع الدموع امل حياة جديدة من روحه الجافة التي اضناها الغم » ـ واقتبس ي . ارمانتغر هـذه الصياغة ـ ، ويشير ذلك الى حصر المعنى في المجال النفسي ، وهو امر غير مبرر . اذ لم تكن (روح) گوته « جافة » يوما ما ، وخاصة في سنوات نظم الديوان .
(٣٥) قارن الكتاب الشيق الذي كتبه هابرش ماير عن گوته ، وفيه آراء غنية عن هذا الموضوع (هـ . ماير گوته . الحياة في الاعمال . هامبورغ ١٩٤٩ ـ ١٩٥١) .
(٣٦) قارن في اخلاء هامش رقم ٢٣ . وانظر كذلك بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، الملحق رقم ١ ، ص ٢٨ : « ويحتم تركيب القصيدة الفني استهلالها بالنسيب واستعادة ذكرى الحبيبة الغالبة عندما يقع نظر الشاعر على موضـع ديارهـا المهجورة ، اثناء سيره في الصحراء » .
(٣٧) هـ . ا . كورف : المقطوعات الخاصة بالحب في الديوان الغربي ـ الشرقي . لايبزغ ١٩٤٧ ، ص ١٢٢ .
(٣٨) هانس ـ ي فانيس : گوته ، الديوان الغربي ـ الشرقي . لايبزغ (دار انزل) ١٩٤٩ ، ص ٤٦٥ .
(٣٩) قارن كذلك هانس بورتس : گوته ومارينه فون فيلمر ، ط ٢ ، شتوتگارت ١٩٤٨ .
(٤٠) طبعة فايمار جـ ١ ، ٦ ، ١٨٧ .
(٤١) انظر هامش ١٦ ، المصدر رقم ٢ .
(٤٢) قارن الهوامش ١٢ و ١٤ .
(٤٣) طبعة فايمار ٤ ، ٢٥ ، ٤١٤ وما يليها .
(٤٤) وقد اعترض و . لينتس بحق على العنوان الذي اقترحه گونراد بورداخ وهو « اهداء » ، ويشير لينتس بان شكل القطعة هو شكل « غزل » . قارن فولفگانگ لينتس : تعليقات وابحاث گوته الخاصة بالديوان . هامبورغ [١٩٥٨/٥٩] ، ص ١٧ ومايليها .
(٤٥) انظر طبعة فايمار ١ ، ٦ ، ٤٨٢ ، مقطوعات مضافة ٣٠ ، طبعة الاكاديمية ، جـ ٣ ، ٢ ، مقطوعات مضافة ٢ .
(٤٦) گلمتا (معلقات) و (قرآن) مطبوعتان بحروف بارزة في طبعة الاكاديمية .
(٤٧) الاعلان عن ذلك في صحيفة الصباح للطبقات المثقفة ، بتاريخ ٢٤ شباط ، ١٩١٦ : طبعة فايمار ١ ، ١) [١] ٨٦ .
(٤٨) يقول ج . فون اوبر تعميما : « موطن الشعر العربي في الصحراء ويتزامن عنفوان شبابه مع فترة حيـاة البداوة » . (الديوان الغربي الشرقي ... مع مقدمة وملاحظات توضيحية) ، تاليف ج . فون لوبر ، برلين ١٨٧٢ ، ص ٥ .
(٤٩) هارتمان ، ص ٧٨ .
(٥٠) قارن مقدمة هارتمان .
(٥١) قارن مقدمة هارتمان .
(٥٢) يوسف فون هامر : رحيق الورد ... او اساطير واخبار الشرق ، جمعت من المصادر العربية والفارسية والتركية. جـ ١ ، شتوتگارت ١٨١ ، ص ١١٧ .
(٥٣) يعتقد ان حياة البدو لم تجر عليها اية تغييرات منـذ العصر البرونزي الوسيط . فقد ظلت خيامهم واطعمتهم وعاداتهم ومثلهم كما هي حتى يومنا هذا .
(٥٤) وكان اليهود من بدو الصحراء ايضا حيث بدا وجودهم التاريخي بدخول قبيلة مع شيخها ـ ابراهيم [عليه السلام] باب التاريخ .
(٥٥) قارن الموضوع المعنون (هجرة) .
(٥٦) النص تبعا لطبعة الاكاديمية وانماط قراءات طبعة فايمار .
(٥٧) قارن الهامش رقم ١٨ . فقد كتب گوته في المقطـع (١٨١٥) لگراريس اليوم والسنة (دونت في تموز ١٨٢٣)، معتمدا على ملاحظات اليوميات المذكورة والخاصة بالايام ٢٣ ، ٢٧ و ٢٨ شباط ١٨١٥ ، مايلي : « استعدت ذكرى المعلقات ، وكنت قد ترجمـت بعضها بعد نشرهـا مباشرة . اما احوال البدو فقد استحضرتها من الخيال » (طبعة فايمار ١ ، ٣٦ ، ٩١) . وكانت يوميات گوتـه مصدرا لگراريس اليوم والسنة .
(٥٨) اضافة الى ترجمتين اضافيتين للمعلقات ، قارن الهامش رقم ١٦ : والمصدر رقم ٢ .
(٥٩) قارن الفصل المعنون « العرب » في التعليقات والابحاث الخاصـة بالديوان : « فعالمة الخلق والصرامة والقسوة المشروعة للفعل هي عصب هذا الشعر . » (تعليقا على قصيدة تابط شرا في الثار) .
(٦٠) رحلة الى بلاد فارس وارمينيا ... تمت في السنوات ١٨٠٨ و ١٨٠٩ ، ترجمها عـن الانكليزية جاك موريه وهي من تاليف ادوارد سكوت وارنك ، وتبعتها رحلة من الهند الى شيراز عن طريق الخليج وبوشهر وگزرون ... وتتضمن وصف تقاليد الايرانيين وعاداتهم ومعارفهـم . وهي بقلم المؤلف نفسه ... باريس ١٨١٢ ، جـ ٢ ، ص ٢٠١ .
(٦١) قارن بروكلمان ، الملحق رقم ١ ، ص ٢٨ ومايليها .
(٦٢) قارن هارتمان ، ص ١ ومايليها ، ص ١٣ ومايليها ، ١٨ ، ٢٩ ، اضافة الى تعليقاته الخاصة بكل قصيدة .
(٦٣) هارتمان ، ص ٨ ومايليها .
(٦٤) قارن ايضا البيت ١٤ من مقطوعة « هجرة » : « ... ومن الخضوع لاي فريب يمتنعون » .
(٦٥) قارن ايضا البيت ١٩ ومايليه والمقطع الرابع من مقطوعة « اني لك هذا ؟ » بالهامش ٧٨ .
(٦٦) ي . ارمانتغر : اعمال گوتـه الكاملة ، الهوامش الخاصة بالاجزاء ١ ـ ٢٤ ، ص ١٩٣ .
(٦٧) ر . رشتر : اعمال گوته الكاملة ، ٢ ، ٣١٠ .
(٦٨) قارن م . رشتر : « تضفي المقطوعة على الديوان اجواء الصحراء بشظف حياتها وجفافها وانعـدام المشاعر فيها (؟) ، لكنها مع كل هذا تزيد في روعـة الديوان . » (گوته ، الديوان الغربي ـ الشرقي ، زوريخ ١٩٥٢ ، ص ٤٦٤) . وبالرغم من هذا التحديد الصحيح فـان رشتر يتحدث في موضع سابق من كتابه المذكور على وجه التعميم ، كغيره من المعلقين ، عـن الشرق بكل معناه كعلامة لميلاد گوته الجديد : « يتطلع المولود الجديـد بنظرة عميقة الى عالـم الشرق الذي احتوى روحـه بكل قـوة » .
(٦٩) الاعلان عن الديوان في صحيفة الصباح ١٨١٦ (طبعة فايمار ١ ، ٤١ ، ٨٨ . حول « كتاب الحزن (او سوء المزاج) » .
(٧٠) الابحاث والتعليقات ، طبعة فايمار ١ ، ٧ ، ١٤٣ .

(٧١) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

(٧٢) قارن مقطوعة « فوافل » ، بيت ٢٥ ومايليه : « وباستمرار تقدم السير ، وباستمرار اتسع المكان ... ».

(٧٣) سنوات تجوال فلهلم مايستر . الكتاب الثالث ، الفصل ٩ (طبعة فايمار ١ ، ٢٥ ، ١ ، ١٨٠ ومايليها) .

(٧٤) قارن كترينا موسن : گوته والف ليلة وليلة . برلين ١٩٦٠ ، ص ١٥٠ ومايليها .

(٧٥) طبعت لاول مرة : طبعة فايمار ١ ، ٥٢ ، ٢٦١ .

(٧٦) طبعة گوته العالمية ، جـ ٥ . لايبزغ ١٩٢٧ . ص ٢٢٩ . ويرى هانس ـ ي فايتس ايضا ان القطعة المضافة (باراليبومينا) تنتمي الى « كتاب الحزن (او سوء المزاج) » : طبعة دار انزل للديوان الغربي ـ الشرقي ، لايبزغ ١٩٤٩ ، ص ٢٩٣ . وترد هذه الابيات في طبعة الاكاديمية في الجزء ٣ ، باراليبومينا ، ص ٤٩ تحت باب « ابيات واجزاء من مقاطع ليس لها مكان معين » .

(٧٧) قارن الجزء الخاص بمقطوعة « ذروني اسكب العبرات » .

(٧٨) ويمكن ان يكون مطلع هذه الجملة في بداية المقطع الرابع من « انى لك هذا ؟ » قريب الشبه بالبيت ١٩ ومايليه : في الليالي الرهيبة تحت تهديد الغارات ...

(٧٩) انظر الجزء الاخير من الفصل الخاص بمقطوعة « انى لك هذا ؟ » .

(٨٠) فولفگانغ برايزندانتس : الحكم في شعر گوته الشيخ وتاريخه منذ اوبتز . هايدلبرغ ١٩٥٢ ، ص ١٨٢ .

(٨١) الحكم الطيعة ، بيت ٩٢ ، ٥٢٧ ، ٦٠٧ ، ٦٢٩ ، ٨١٣ ، ١١٢٩ ، ١٢٦٣ .

(٨٢) الابيات ٦١ ، ٥٤ ، ٥٠٧ ، ٨٠٧ ، ٨٨٢ .

(٨٣) البيت ٧٤٢ .

(٨٤) البيت ٧٦٦ .

(٨٥) البيت ١٣١ .

(٨٦) الابيات ١١٤ ، ١١٢٦ ومابليه .

(٨٧) البيت ٢١٢ .

(٨٨) الابيات ١٢٨ ، ٨٧١ .

(٨٩) البيت ٥٢ .

(٩٠) البيت ٤٠ .

(٩١) البيت ٥٩ .

(٩٢) البيت ٦٤٠ .

(٩٣) مخلفات . القسم ٧ ، بيت ١٨٣ .

(٩٤) ونشرت المجموعتان في سنة ١٨١٥ في الجزء الثاني من طبعة كوتا الثانية .

(٩٥) كراريس اليوم والسنة ١٨٢١ (طبعة فايمار ١ ، ٣٦ ، ١٧٦) .

(٩٦) طبعة فايمار ٣ ، ٥ ، ٢٩٧ .

(٩٧) گريف : الشعر ٢ ، ١ ، ١٣٣ .

(٩٨) قارن « الخيال والفخر » في مقطوعة « اني لك هذا ؟ » البيت ٢٤ .

(٩٩) انظر فصل « الحكم الطيعة » .

(١٠٠) الرحلة الايطالية ، القسم الثاني (طبعة فايمار ١ ، ٣١ ، ٢٤٩) .

(١٠١) هارتمان ، ص ١١٤ .

(١٠٢) هارتمان ، ص ٩٢ . وتبدأ « ترجمة معلقة زهير » على الصفحة التالية (المقابلة) .

(١٠٣) هارتمان ، ص ١٨٠ .

(١٠٤) وبرد البحث لاول مرة عن هذه المراجعة في سنة ١٨٢٥ كانون الثاني / شباط ، ولابد ان مقطوعة « امامك الامس واضحا جليا » قد انشئت آنذاك . واقدم تاريخ للمخطوطة هو : ٧ ايلول ١٨٢٥ ، وهو تاريخ يرتبط بالذكرى الخمسين لتبوأ گوته منصبه الاستشاري ، ولا علاقة له بتاريخ انشاء المقطوعة .

(١٠٥) رسالة الى تسلتر بتاريخ ١ كانون الثاني ١٨١٧ ، ورسالة الى كنيبل في ٢ كانون الثاني ١٨١٧ .

(١٠٦) رسالة الى تسلتر بتاريخ ٢٦ كانون الاول ١٨١٦ ، قارن الرسالة الموجهة الى اوتيليه اميرة هنكل ـ دورنر سمارك في ٢ كانون الثاني ١٨١٧ .

١٠٧ـ قارن البيت ١٢ ، ١٥ ، ١١٦ . انظر كذلك الديوان الغربي ـ الشرقي : « » (كتاب الامثال) .

(١٠٨) قارن گريف ، الشعر ٢ ، ١٣٣ .

(١٠٩) الابيات ١ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٧٣ ، ٩٤ .

(١١٠) ويؤكد فولفگانغ برايزندانتس بحق بان « الخبرة في الحياة هي العنصر الانساني الذي تنبع منه امثال [گوته في اواخر حياته] » ، المصدر المذكور سابقا ، ص ١٧٨ .

(١١١) الكلمة مكتوبة بحروف متقطعة في المخطوطة .

(١١٢) انظر مطلع الفصل الخاص عن « العرب » .

(١١٣) لندن ١٧٧٤ . وفي مكتبة گوته الخاصة نسخة من الطبعة الجديدة للكتاب قام باعدادها ي . ج . آيشهورن . لايبزغ ١٧٧٧ (روبرت ٧٦٦) .

(١١٤) النص اللاتيني الذي اعتمد عليه گوته (في طبعة ١٧٧٧ ، ص ٧٢) .

(١١٥) طبعة الاكاديمية ، جـ ٣ ، باراليبومينا ، ص ٨٨ ومايليها . ١٠٦ ـ ١١١ .

(١١٦) قارن بروكلمان ، المصدر المذكور سابقا ، جـ ١ (طبعة ٢) .

(١١٧) « زمن الجاهلية » : قارن الهامش ١٩ .

(١١٨) طبعة فايمار ١ ، ٧ ، ٣٥ ومايليها .

(١١٩) وحرصا على الكمال اود الاشارة الى ان مكتبة گوته كانت اثناء فترة كتابة الملحق الخاص بالديوان و « الابحاث والتعليقات » تضم كتابا عن عمرو بن كلثوم من تاليف ي . جـ ل . كوزگارتن ، وكان مستشرقا شابا من مدينة يينا والمستشار الرئيس لگوته في مسائل الاداب الشرقية وهو بعنوان : عمرو بن كلثوم . يينا ١٨١٩ (روبرت ١٧٦٦) وباللغة اللاتينية . ولم نلاحظ اية مؤثرات لهذا الكتاب على اعمال گوته .